

الشائقيّة

وصف لقبائل الشايقية وتاريخ مديرية دنقلة
من القرن الرابع عشر الى القرن التاسع عشر

تأليف

و. نكولز

نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه

دكتور عبد المجيد عابدين

الدار السودانية

الخرطوم ص ب ٢٤٧٨٣

الدار السودانية

للطباعة والنشر والتوزيع

الخرطوم - شارع أبوسن - عمارة حسن عبد الرحمن

٢٤٧٣ ☎ ٨٠٠٣١ ☎ توزيع عدد

الشايقيّة

وصف لقبائل الشايقية وتاريخ مديرية دنقلة
من القرن الرابع عشر الى القرن التاسع عشر

تأليف
و . نكولز

نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه

دكتور عبد المجيد عابدين

الدار السودانية

الخرطوم ص ب ٢٤٧٣

مقدمة المترجم

رأيت أن أنقل هذا الكتاب إلى قراء العربية ، وهو كتاب طبعه مؤلفه مستر نكولز سنة ١٩١٣ ، وصار منذ ذلك الوقت مرجعاً لكل من يبحث في قبائل الشايكية وتاريخها . وقد جمع فيه الروايات الوطنية التي يرويها الشايكية أنفسهم ، وقارن بينها وبين أقوال المؤرخين والرحالة الذين زاروا بلاد الشايكية أو تحدثوا عنها . وقد تقبل بعض هذه الروايات ، وشك في بعضها . غير أنه بما يعيب الكتاب - في نظرنا - بعض أقوال جمع بها قلمه ، فأساء فيها الحكم أحياناً ، وأخطأته لباقة العبارة أحياناً أخرى . وقد علقنا على هذه الأقوال في مواضعها من هوامش الكتاب .

أضف إلى ذلك أن الكتاب لم يتعرض لجوانب من تاريخ الشايكية كالبحث في أصل الشايكية ، وهذا موضوع شغل الذين كتبوا عن الشايكية بعد زمن تأليف هذا الكتاب . ونرى تماماً للفائدة أن نعرض لأهم الآراء في ذلك الصدد . وبين أيدينا أربعة آراء في أصل الشايكية نلخصها فيما يلي :

١ - يرى ترمنجهام (الاسلام في السودان ص ٨٨) أنهم ربما كانوا أصلاً من البجة . ويعتمد في هذا على ما رواه المقرئ عن ابن سليم الأسواني من أن الزنابج ، وهم فريق من البجة ، هاجروا في عصور قديمة إلى بلاد النوبة واستقروا هناك . واحتفظوا بلغتهم الخاصة فلم تختلط بلغة النوبة . ثم لاحظ ترمنجهام أن جميع أسماء قبائل الشايقة تنتهي بالمقطع (آب) وهو مقطع لفظي مأخوذ من لغة البجة .

وزعم ترمنجهام هذا ، في نظرنا ، لا ينض به دليل . فإن انتهاء اسم القبيلة بمقطع من لغة البجة ليس دليلاً على أن القبيلة بجابوة الاصل . ولا سيما إذا عرفنا أن هذا المقطع يدخل في أسماء كثير من القبائل العربية التي تسكن في أقاليم مختلفة من السودان .

٢ - ويرى ماكما بكل (تاريخ العرب في السودان ج ١ ص ٢١٣ وما يليها) أنه من المحتمل أن يكون فريق من هذه القبيلة كان في الاصل من بقايا الجنود المرتقة من الترك والألبان والبشناق الذين كانوا يؤلفون الحاميات والحرس في بلاد النوبة منذ غزو السلطان سليم العثماني (١٥١٧ م) وقد استقر عدد منهم في النوبة .

وقد استبعد الباحثون اليوم هذا الرأي . فقد رده كراوفورد (في مملكة الفونج في سنار ص ٤٤) فذكر أن هنالك اعتراضاً

قوياً ضد هذا الرأي ، وهو أن سليماً العثماني لم يغز هذه المنطقة ولم يقم عليها حراساً ولا حاميات . وأن المناطق التي قامت على حراسها فئات من هؤلاء ، وهي الواقعة بين الشلالين الأول والثالث ، لم تنتج سلالة من السكان عندها من الخصائص ما نجده عند الشايكية . ورد الدكتور عوض (السودان الشمالي ص ١٨٥) هذا الرأي بقوله : (بما يؤسف له أنه ليست لدينا دراسة للشايكية بواسطة رجل من علماء الأجناس حتى نستطيع بالدراسة العلمية المقاييس ، وعلى الأخص مقاييس النسبة الرأسية أن نحكم على وجه الشبه بين الشايكية وأولئك الجنود الذين إذا كانوا حقيقة لهم نسب ألباني أو تركي أو بشناق فإن هذا كفيلاً برفع النسبة الرأسية . ومثل هذا الاختلاط يتنافى مع ما نعرفه من صفات الشايكية الجسدية ، كتحول الجسم والوجه وشكل العيون . أما بروز الانف فمعروف لدى كثير من العرب حتى في السودان نفسه) .

٣ - يرى قرن (وهو رحالة ألماني زار السودان في خلال سنتي ١٨٤٠ ، ١٨٤١) أن الشايكية ربما كانوا في الأصل طبقة من محاربي المصريين القدماء أو جماعة من سلالة المحاربين النازحين الذين تحدث عنهم هيرودوت المؤرخ فذكر أنهم كانوا جنوداً في جيش فرعون ثم ثاروا ورفضوا العودة إلى مصر بعد أن هاجروا منها إلى الجنوب . وكان هذا في عهد أبسماتيك . وزعم هيرودوت

أن عددهم كان مائتين وأربعين ألفاً على وجه التقريب ، ويقول
بليزوس المؤرخ (٧٠ م) أنهم فروا من وجه أبسمايك وسكنوا
في مناطق قريبة من مروي القديمة (راجع بحثاً قدمناه للجمعية
التاريخية السودانية بعنوان « ميلاد سوبا » المجلد الأول - الجزء
الثاني من أعمال الجمعية) .

ويؤيد قرن هذه النظرية بعدة ملاحظات : (١) موقع بلاد
الشايقية قريباً من مروي القديمة التي حموها من غارات برايرة
الجنوب (٢) والنزعة العسكرية المتأصلة في نفوس الشايقية .
(٣) وكونهم غير خاضعين لزعيم واحد ، بل كانوا دائماً يعيشون
أحراراً في ظل ملوك صغار . ولعل الأسر الحاكمة فيهم يمثلون
طبقة السادة المصرية القديمة التي لم تعترف بسلطان أحد سوى ملوك
أثيوبيا . فلما زال ملكهم صاروا أمراء مستقلين كما حدث لقواد
الاسكندر المقدوني بعد وفاته (٤) وعادة الشايقية في تقصير شعر
رأسهم وتلك عادة مصرية تخالف العادة السائدة عند العرب والنوبيين .

ويضيف ما كما بكل ملاحظة أخرى تؤيد نظرية قرن وهي
(٥) ما شاهده الرحالة الفرنسي كابر من أن الشايقية في إقليم
الجزيرة يقيمون نصباً على صورة إنسان يعين حدود الجهات التي
غزوها . ويقول ما كما بكل أن هذه العادة بلا شك مقتبسة من
الفراعنة الذين كانوا يقيمون تمثالاً على حدود فتوحاتهم (عوض
١٨٤ ، ما كما بكل ١ : ٢١٣ وما يليها) .

٤ - وترى الروايات الوطنية التي يتداولها الشايقية أنفسهم أنهم من أصل عربي . وهذا الرأي لم يقم ضده دليل قوي إلى الآن . فقد رأينا في الرأيين الأول والثاني ضعفاً ظاهراً . أما الرأي الثالث (رأي الرحالة الألمانى قرن) فاننا لاننكر ما فيه من وجاهة ، وهو في الوقت نفسه لا يتنافى مع عروبة هذه القبيلة بل يؤيدها . فقد أشار فرن إلى هذه الطبقة من المحاربين الشاثرين الذين هاجروا إلى الجنوب من مصر القديمة . والعلماء مختلفون في أصل هذه الطبقة . وقد رجحنا في بحثنا « ميلاد سوبا » الذي أشرنا إليه فيما سبق ، أن هذه الطبقة كانوا من عرب الأراميين الذين كانوا يعملون في مصر جنوداً مرتزقة في عهد بسماطيك الثاني وكانوا قد عهد اليهم في محاربة المناطق الجنوبية (ص ٢ - ٤) . وعلى هذا يكون رأي قرن في الواقع مؤيداً للروايات الوطنية الشايقية ، إذ تكون القبيلة في الأصل ، من هؤلاء العرب الذين هاجروا من مصر الفرعونية بعد أن استقروا فيها فترة من الزمن عملوا فيها في جيش فرعون .

فإذا وجدنا في عادات القبيلة آثاراً مصرية ، فمن اليسير ردها إلى تلك المؤثرات المصرية التي عملت في هؤلاء العرب في خلال اقامتهم في مصر . فلما هاجروا إلى الجنوب حملوا معهم هذه المؤثرات .

ولسنا ننكر مع ذلك أن مجاورة الشايقة لعناصر إفريقية
وحامية في موطنهم الجديد ، ودخول هجرات عربية جديدة بعد
الاسلام في السودان واختلاط أصولهم بدماء عربية حديثة جاءت
اليهم من الشمال أو الشرق - كل ذلك قد أحدث آثاراً في
عاداتهم ولغتهم على مر العصور ، ولكنهم فيما يظهر لم يسمحوا
للسلالات الجنوبية بأن تمتزج بدمائهم ، لذلك احتفظوا بلون
بشرتهم الذي يقرب من لون المولدين .

الخرطوم في نوفمبر ١٩٥٦

عبد المجيد عابدين

مقدمة المؤلف

كنت قصدت في بادئ الأمر إلى تأليف واف عن تاريخ السودان الشمالي من العصر المسيحي إلى وقتنا هذا . وكان من برنامج هذا البحث أن يتألف من ثلاثة أقسام : الأول الممالك النوبية . الثاني : الفونج والشايقية . الثالث : السيطرة التركية . ولكن الزمن الذي أتيسح لي لم يكن كافياً لتنفيذ خطتي هذه . ولذلك عقدت النية على أن أحصر جهدي في القسم الثاني من البحث الآنف الذكر . وكانت النتيجة هي هذا الكتيب الذي أرجو أن يحقق فائدة كافية في تاريخ أشهر ركن من أركان السودان ، حتى يتسنى في المستقبل القيام بأبحاث أخرى مستمدة من الروايات التاريخية المسجلة عن هذه المنطقة .

ولما كانت المخطوطات الوطنية قد أتلقت إتلافاً يكاد يكون تاماً في أثناء ثورة الدراويش ، لم يكن بين يدي المؤرخ إلا مادة يسيرة يستمد منها البحث ، وإلا أن يعتمد اعتماداً كبيراً على الملاحظات العابرة التي دونها الرحالة الذين زاروا هذه البلاد أو مروا قريباً منها .

والروايات الوطنية التي لا تؤيدها الوثائق التاريخية ، لا يمكن الاعتماد عليها ، فهي تتطلب من الباحث غريزة ومحيصاً . وذلك بسبب تلك الحيلة التي هي غريزة متأصلة في أهالي السودان .^(١) فكل فرد مواطن ، مهما يكن أصله الذي ينتسب إليه ، يحاول أن يثبت أنه ينحدر من أشرف جماعه عربية ، وأن قبيلته التي ينتمي إليها تتبوأ مكانة ممتازة ، وتلعب دوراً كريماً في تاريخ السودان .

وختاماً أقدم شكري الخاص للكابتين أ . س . جاكسون ، والكابتين ج . س . ساييس ، ومحمد بك السيد للمساعدة القيمة التي قدموها لي .

و . نكولز

الأبيض - كردفان ١٩١٣

(١) هذا حكم جائر على أهالي السودان . ولم أنصف الباحث لقال : إن الروايات الوطنية بما فيها من مبالغات أحياناً موجودة عند كل الشعوب دون استثناء ، وإنها تؤلف مجموعة التراث القومي الذي يعتزون به ، ويتخذون منه مثلاً علياً للبطولات بأنواعها . وإذا فرضنا أن شعباً قد خلا من الروايات الوطنية ، وهذا بعيد جداً ، فهو شعب لا يجد له ولا تراث . ولسنا بحاجة إلى أن نذكر هذا المؤلف بأنه قد استغل في بحثه هذا تلك الروايات التي يعيبها ويعيب أهلها (المترجم) .

الفصل الأول

« سقوط الممالك النوبية وقيام الفونج »

تعد الشابية من أهم قبائل السودان الشمالي من وجهة النظر التاريخية . وترتبط هذه القبيلة بتاريخ السودان الشمالي ارتباطاً وثيقاً من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر . ولا يعزى هذا الارتباط إلى الموقع الجغرافي وحده بل إلى ما يتصف به من نزعات حربية ، وإقدام ، ومهارة واستبسال في الشؤون العسكرية .

والشابية هم أبناء شايق بن حميدان ^(١) بن صبح أبو مريخة وهو الذي تزعم رواياتهم ، أنه هاجر بالقبيلة من بلاد العرب إلى السودان . وهم ذوو قرابة وثيقة بقبائل الجميعات والجوامعة وفروعها ، ويتصلون بالبديرية نوع اتصال وكلهم ينتمون إلى المجموعة الجعلية .

(١) الانساب التي حصلنا عليها تجمع على هذه النقطة .

وسيجد القارئ في الملحق الأول في آخر البحث ، جدولاً يوضح العلاقات بين القبائل التي تمثل جزءاً من الهجرات العربية الكبرى التي أحدثتها القبائل العربية المهاجرة إلى السودان من بلاد العرب من طريق البحر الأحمر في غضون القرون : الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر .

دخلت هذه القبائل السودان من طريق سواكن ومصوع ، واتجهب غرباً وجنوباً صوب نهر النيل ، وتمسك البدو منهم بحياة البداوة فتنقلوا في البلاد الغنية الواقعة بين العظيرة والنيل الأزرق . أما القبائل الأكثر استقراراً فقد استوطنت البلاد الممتدة على ضفتي النيل بين الشلالين الرابع والخامس حيث شغلوا حيزاً فاصلاً بين المملكتين المسيحتين في ذلك الحين ، بمملكة علوة الجنوبية ، ومملكة مقرة الشمالية (٢) .

كانت هاتان المملكتان ، حين قامتا في بادئ أمرهما ، قوتين عزيزتي الجانب ، متحدتين . لذلك وقفنا عقبه كأداء في سبيل الفتح الاسلامي للسودان . ولكنها لم تلبث الخلافات الداخلية أن فتكت بوحدة كل منها ، فانقسمت إلى عدة طوائف صغيرة متعادية متنابذة ، وذلك يعزى إلى الإهمال الذي عاتته كل منها على يد الكنيسة الكبرى التي دانوا لها ، وهي كنيسة الاسكندرية ،

(١) راجع في تاريخ ممالك النوبة المسيحية كتاب كاترمير :

في خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كما يعزى إلى انتشار الاسلام السريع .

ولهذا وقعت المملكتان فريسة سائغة في أيدي العرب ، وصرعان ما التأمّت روابط العرب في هذه المنطقة ، بحكم صلات القربى التي تجمع بينهم ، وبحكم روابط الدين المشترك .

وفي نهاية القرن الخامس عشر انضوت هذه القبائل العربية المختلفة تحت لواء قائد واحد ، هو عبد الله جماع ، من عرب القواسمة وشيخ قبيلة العبدلاب ومؤسسها .

وفي بداية القرن السادس عشر تحالفت القبائل العربية المتحدة بقيادة عبد الله جماع ، مع قبيلة الفونج الشبيهة بالزنوج^(٣) وكانت هذه القبيلة قد قدمت من الجنوب بقيادة ملكها عمارة دونقس ، وصارت ذات قوة ونفوذ في تلك المنطقة .

تكاثفت جهود هذه القبائل المتحالفة على غزو مملكة علوة المسيحية^(٤) ، فغزوها وقضوا عليها^(٥) ووقعت حدودها ، من

(١) أورد ماكايكل خلاصة للآراء المتعلقة بأصل الفونج في كتابه (قبائل كردفان الشمالية والوسطى) .

(٢) كانت عاصمتها سوبة على النيل الازرق .

(٣) هذا ما أوردته مخطوطة تاريخ سنار (انظر الفصل الثاني) ولكن الاقرب أن انحلال الممالك المسيحية قد حدث ببطء وبالتدرج .

اربعى على النيل الأزرق إلى جبال قرّى^(٦) في أيدي العرب .
ففي العقد الأول من القرن السادس عشر ، استولى الفونج
على كل البلاد الواقعة في الجنوب بين النيل الأبيض وحدود
الحبشة إلى نهر الرهد . في حين كانت العرب الذين خضعوا
للفونج سادة على منطقة وادي النيل الممتدة من نهر الرهد إلى
الشلال الرابع .

أما مملكة النوبة الشمالية ، فقد صارت في ذلك الوقت في
مأزق حرج . فقد ظلت أعواماً طويلاً مشغولة في حروب مستمرة
وخصومات مع قبائل البجة في الشرق ، والفور في الغرب . ثم
جاء الأتراك العثمانيون فغزوها بقيادة السلطان سليم الذي كان
قد غزا كل المناطق الواقعة من أسوان إلى سلاط حنك^(٧) ،
واحتلها جميعاً .

وخرجت مملكة النوبة الشمالية من ذلك كله مضعضة قد
أنهكتها المنازعات المستمرة ، وقسمها وأضعف شوكتها ذلك
الصراع الداخلي الذي وقع بين أمراءها الكثيرين ، وبينهم وبين
المسلمين حتى غزتها القبائل العربية المتحدة بقيادة مشايخ العبدلاب
الذين كانوا يعملون لحساب سلطنة الفونج في سنار .

(١) عند الشلال الخامس .

(٢) وهي الحدود الشمالية في الوقت الحاضر لافليم دنقلة ، أعني
الشلال الثالث .

وسقطت بملكة دنقلة ، وتهاوى معها آخر ما خلفته المسيحية
في السودان .

وأقبل أهالي هذه المملكة المنحلة على الاسلام ، وسمح لهم
بالبقاء في بقاعهم ، واندجوا شيئاً فشيئاً في الغزاة حتى صار في
الوقت الحاضر ، من أصعب الأمور أن يميز المرء بين النوبي والعربي .
أضف إلى ذلك أنه ليس أحد من أهالي النوبة ، يعترف
طواعية بأنه نوبي الأصل ، ولكنهم يتنافسون جميعاً في الدعوى
بأنهم ينتمون إلى أشرف دماء في الحجاز^(١) .

على أن عدد الذين بقوا في تلك البقاع كان كبيراً ولا سيما
في الشطر الشمالي من المملكة ، وبدلنا على هذا أن العرب من
الغزاة والمهاجرين قد اصطنعوا لغة النوبة ، وأن اللسان النوبي
لا يزال حياً إلى اليوم ، وأن ما يقرب من ثلثي مديرية دنقلة
يتخذون النوبية لغة عامة بينهم .

أما أولئك النوبيون الذين رفضوا أن يهجروا دينهم القديم ،
فقد هربوا إلى جبال كردفان ودارفور حيث ارتدوا سريعاً إلى
حالتهم الأولى من الوثنية والتوحش^(٢) .

(١) فثلا سكان المحس النوبيون يزعمون أنهم من بني أمية .
(٢) يتكلم سكان عدد من جبال النوبا في كردفان لغة تختلف
قليلاً عن النوبية الدنقلوية . أنظر لبسيوس في كتابه بالألمانية عن نحو =

ولم يكد ينتهي القرن السادس عشر حتى كان وادي النيل كله من شلالات حذك إلى نهر الرهد قد خضع لملك الفونج في سنار من طريق مشايخ العبدلاب في قرني .

في ذلك الوقت كانت مملكة دنقلة قد تضععت وانقسمت إلى ثلاث دور رئيسية (جمع دار) ، وسميت على أسماء القبائل الكبرى التي سكنت فيها . وكانت كل دار منها منقسمة إلى عدة رياسات أو ممالك فرعية صغيرة كما يحلو لهم أن يسموها ، كل منها برأسها أمير خاص أو ملك .

١ - فأولى هذه الجماعات ، في أقصى الشمال ، هي التي أسميها (دار الجوابرة) (١) - والجوابرة هم أكثر القبائل عدداً

= اللغة النوبية (برلين ١٨٨٠) فقد أورد في المقدمة جداول للمقارنة بين اللغات المستعملة في جبال كارجو وكولداجي والنوبا وكلفان وبين اللغة الدنقلوية . وقد رأيت مرة نوباويا من جبل أبو جنود وحدثته بالدنقلوية . . واستطعت أن أجعله يفهم مني نسبياً . وحصلت منه على مجموعة من الالفاظ وجدت أنها تختلف اختلافاً يسيراً جداً عن تلك المستعملة في دنقلة - ولما سألت هذ النوباوى عن أصله أجنبي بأنه من نفس الاصل (واستعمل لفظ « أرج » ومعناها أصل أو عرق) الذي ينتمي إليه الدناقلة .

(١) انظر بر كهارت في (رحلات في بلاد النوبة) ص ١٣٣ ، ١٣٤ حيث يقول : « أما القبيلتان الجوابرة والغربية ، فإن الاخيرة فرع من قبيلة الزناتية الكبرى : استوطنت البلاد الواقعة من أسوان إلى وادي حلفا ، وكان من أثر ذلك أن بسطت نفوذها على عدد =

هناك - وهي تمتد من شلالات حنك إلى حلة النبي ، وتتضمن ممالك أرجوا ، وجزيرة مقاصر والحناق .

وكان أهالي هذا الاقليم خليطاً ، معظمهم من الجوابرة والنوبة

كبير كانوا قد استقروا على ضفتي النهر في زمن الغزو العام ، وكان من بينهم الكنوز وهي قبيلة من نجد والعراق . واستوطنت قبيلة الجعافرة الكبرى (وكثير من سكان دنقلة « العرضى » الآن ينتمون إلى هذه القبيلة - المؤلف) ضفاف النيل من أسنا إلى أسوان . واستقر قليل من أسر الاشراف في بطن الحجر وفرض فرع من قرش نفسه على المحس . وكانت النوبة موطن هؤلاء العرب منذ عدة قرون ، وظلوا في حروب مستمرة مع بعضهم بعضاً ؛ وفي أثنائها تمكن ملوك دنقلة من الظفر بنفوذ كبير عليهم حتى استطاعوا أخيراً أن يفرضوا عليهم الجزية .

» أما الجوابرة فقد تغلبوا على الغربية تقريباً ، فأرسل الغربية رسلاً إلى القسطنطينية ، في عهد السلطان سليم ، وطلبوا مساعدتهم على اهدائهم ، ونجحوا في اقناع السلطان سليم بامدادهم بقوة تتألف من بضع مئات من جنود البشناق بقيادة من يدعى حسن كوزى وبواسطة هؤلاء طرد الجوابرة وأهالي دنقلة من بلاد النوبة ، إلى دنقلة ، وإلى يومنا هذا نجد أغنى سكان دنقلة ينتمون إلى الجوابرة . ومع ذلك بقي بعض أمر الجوابرة في مواطنها يعيشون في سلام ، ولا تزال ذريتهم الذين يسكنون في معظمهم في الدر ووادي حلفا ، معروفين بأسماء أجدادهم .

والمركز الرئيسي للجوابرة الآن في جزيرة بادين ، ويوجد عدد كبير في الزورات حيث يوجد مختار أفندي عوض ممثلهم الاعلى ، ويوجد هدد أيضاً في جزيرة سميت في المحس . ويطلق على الجوابرة في اللهجة النوبية اسم (جبركي) .

مع أثر من الكنوز^(١) والمهاجرين المصريين. وهناك أيضاً قليل من العرب الذين ينتمون إلى مجموعة البجة^(٢) الساكنة في الصحراء إلى جهة الشرق .

غير أن الأسرة الحاكمة في أرجو كانت من الحاكما^(٣) وهي قبيلة جعلية ، وأطلق على الملك الذي أقام في أرجو وفي بنه (ملك الجزر) . وكانت عاصمته في أرجو ، وكان إلى حد

(١) بنو كنز فرع من قبيلة ربيعة العربية ، هاجروا من نجد والعراق في أواسط القرن التاسع واستوطنوا مصر العليا ، وتظاهروا مع الاهالي وصاروا ذوي قوة وصول في شئون الحرب . وفي أواخر القرن الثالث عشر غزا سلطان مصر سيف الدين قلاوون بلاد النوبة حتى بلغ دنقلة . ويروى أن جوعاً من بنى كنز قد صحبته في هذه الحملة . وفي القرن الرابع عشر هاجم بنو كنز مدينة أسوان ، وسيطروا عليها ، ولكن عرب الهوارة ردوهم مرة أخرى في بداية القرن الخامس عشر .

وللكنوز فروع أهمها النصر اللاب ، وأبو هور والامنيلا^(٤) الذين يقيمون في البلاد الواقعة بين أسوان والدر (أنظر لين بول في تاريخ مصر في العصور الوسطى ص ٢٩ ، ٣٠٨ ، وانظر بركهارت (رحلات في النوبة ص ٢٦) .

(٢) وم البشاريون الذين ينتمون إلى أصل مجاوي بالرغم من أنهم يفتخرون بانتسابهم إلى الكواهلة (ابن بطوطة في وصفه لرحلته إلى ساحل البحر الأحمر) .

والبشاريون في دنقلة في الوقت الحاضر يتمثلون في قبيلة هاموك الذين يسكنون الصحراء إلى شرق أرجو .
(٣) انظر الملحق الاول .

كبير أقوى حاكم في الشطر الشمالي من الافليم ، يعترف له
سائر الأمراء بالسيادة والزعامة .

٢ - « دار البديرية » ^(١) وتمتد من قتيبي إلى حدود دار
الشايقية ، عند جبل الدجر ^(٢) ، وكان لها أمراء يحكمون في
الحدائق ودنقلة العجوز وجزيرة تنقسي وأبكور ودقّر . وكانت
دنقلة العجوز أكبر ممالكهم وكانت سائر الممالك بمثابة إمارات
تابعة لها .

استوطن هذه البلاد البديرية والنوبة ، وسكنت مقاطعات
كورتي وأميجول قبيلة الطريفية التي تمت بصلة قرابة وثيقة إلى
البديرية (انظر الجدول في الملحق الأول) .

٣ - وتمتد « دار الشايقية » على طول ضفتي النهر من جبل
الدجر إلى نهاية مسقط الشلال الرابع ، وتشمل بمالك أربعاً ،
هي حنك ، وكجبي ، ومروى ، وعمرى .

(١) يقول بر كهارت في : (رحلات في بلاد النوبة) ص ٦٣ « بين
مدينة دنقلة ومروى يوجد واد للعرب يسمى بدير ، ورؤساؤه إلى
وقت قريب كانوا خاضعين للشايقية » .

(٢) اسم هذا الجبل مختلف فيه بين الباحثين . وقد سماه بعضهم
جبل الضيقة ، وهو جبل على الضفة الغربية (اليمنى) من النهر ، ويبدو
أنه هو جبل ابن عوف .

والمقاطعة كلها يسكنها عرب الشايقية ، وقليل من النوبة يعيشون معهم عيشة خضوع واذعان . وأهل دار الشايقية يختلفون عن أهالي سائر الدور في أنهم عندما يتهددهم عدو مشترك ، يهبون صفاً واحداً لمحاربته ، وقد طرحوا جانباً كل ما بينهم من أحقاد وخصومات ، وبادروا جميعاً إلى الانضواء تحت قيادة موحدة . هذا بالرغم من أن دارهم مقسمة الى أربع بمالك منفصلة ، وأن ملوكها الاربعة طالما تنازعوا فيما بينهم ، ولكنهم حين يجد الجد كلمة واحدة . وهنا يكمن السر في قوتهم . وقد عجزت بمالك دنقلة الأخرى عن تأليف جبهة متحدة ضد أي عدو مشترك فكانوا ينقسمون دائماً على أنفسهم ، ولهذا فنذ أن ظهروا الى حيز الوجود كانوا دائماً خاضعين لقوة أخرى أجنبية عنهم .

الفصل الثاني

ضعف نفوذ الفونج في دنقلة

في غضون القرن السابع عشر أصبح الشايقية قبيلة قوية ذات نفوذ وسلطان . ولاحق أنهم صاروا من القوة بحيث استطاعوا في خلال النصف الأخير من هذا القرن أن يشقوا عصا الطاعة على سلطنة سنار وأن يتعدوا العبدلاب والفونج جميعاً .

وحانت لحظة الثورة على بلاط سنار ، عندما ثارت المتاعب والخلافات الداخلية في سنار . ونستدل على ذلك بالفقرة الآتية التي اقتطفتها من مخطوط عربي كتبه لي المرحوم الشيخ ابراهيم الشريفي بعنوان (تاريخ السودان المختصر) : د وحكم (الملك بادي أبو دقن) ستة وثلاثين عاماً ثم خلفه ابن أخيه أونسه ود ناصر . وفي عهده ، في سنة ١٠٩٥ هـ (١٦٨٤ م) وقعت مجاعة شديدة ، حتى أكل الناس لحم الكلاب وتعرف هذه السنة

بسنة « أم لحم »^(١) ، وقد هلك جوع كبيرة من الناس وأمس البقاع الحصة كلها صحارى جرداء ، بسبب المجاعة وانتشار الجدري^(٢) .

« وظل هذا الملك يحكم في سنار حتى أدركته الوفاة سنة ١١٠٠ هـ وكانت مدة حكمه اثني عشرة سنة .

« وخلفه ابنه الملك بادي الأحمر . وكان هذا أول ملك من ملوك الفونج نخرج عن طاعته القبائل التابعة لحكمه ، فثار عليه الشيخ الأمين أرادب ودعيب وسار اليه على رأس ألف رجل من الفونج وغيرهم ونصبوا ملكاً آخر عليهم اسمه أوكل ونادوا بعزل بادي الأحمر ، .

كان النير الذي وضعه « السلطان الأزرق » في رقاب هؤلاء القوم المحاربين المعتزين بأنفسهم أمراً ثقيلاً على نفوسهم ، وقد وجدوا الآن الفرصة سانحة للتخلص منه ، فقام بينهم بطل محرو يتمثل في شخص عثمان ود حمد العمرابي الذي استطاعوا على يده أن يحققوا ما كانوا يصبون اليه ، وبضعوا دفعة واحدة حداً لهذه التبعية التي جعلت مركزهم شاقاً مهيناً .

(١) هذه التسمية هي من قبيل تحسين المدلول بلفظ يدل على عكس ما ينشئ منه ويتشاهم من ذكره . واللفظ هنا معناه السنة الكثيرة اللحم والخيرات !

(٢) انظر الملحق ٣ .

كان عثمان ابناً أمثل من أم مثلى . كانت أمه عديلة ^(١) فارسة شهيرة في تاريخ الشايقية ، قد فاقت في الفروسية وفنون القتال جميع نظرائها من الرجال . تركب في طليعة الجيش حين يتقدم الى ميدان النزال . وتخوض قلب المعركة حين يحترم القتال . وكان وجودها مع المحاربين ، وبسالتها في الحرب أكبر مشجع لهم على الاستماتة في القتال ، ولقد أحرزت لقبيلتها كثيراً من المعارك التي كان النضال فيها شديداً عنيفاً .

يزعم البعض أن عديلة قد سنت للشايقية سنة جديدة ، وهي مارواه الرجالون كابو ووادنجتون وهانبري ^(٢) عن موقعة كورتي من أن الشايقية من عاداتهم أن يجعلوا امرأة تركب في طليعة الجيش ، لتعرضهم على القتال ، وتعطي لهم الإشارة ببداية المعركة ، ولكنني أظن أن هذه العادة ترجع إلى أقدم من هذا .

وكانت عديلة هي التي حرّضت عثمان على إيواء أحد المحاربين من وجه الشيخ الأمين ود عجيب رعيم العبدلاب . وكان هذا اللاجئ الهارب قد فقد ثقة الشيخ الأمين وخشي بطشه وسطوته . وقد أوغر هذا صدر الشيخ ، وكانت عديلة بذلك التحريض هي السبب في إشعال نار الحرب التي أدت إلى استقلال الشايقية .

(١) يكتبها المؤلف عازلة أو عزيلة .

(٢) في (رحلة إلى مروى) للرحالة كابو ، وفي الرحلات التي كتبها وادنجتون وهانبري .

فعندما بلغ ود عجيب أن هذا الهارب قد اتخذ من عتمان ملجأ ، أرسل إلى عتمان رسولاً يخبره بين أمرين : إما أن يقتل الهارب أو أن يسلمه إليه فوراً . وقد أجاب عتمان على رسالة الشيخ الأمين بجواب ينطوي على إهانة ، اذ رفض أن يقتل اللاجئين وأخبر ود عجيب بأنه إذا كان يريد هذا اللاجئين فليحضر نفسه ليأخذه إن استطاع .

وأيقن عتمان بالعواقب التي لامفر من حدوثها والتي تترتب على هذا التحدي ، فرجع إلى جزيرة دلقة ^(١) ونهيا للقتال . ولم يتوان الشيخ ود عجيب في تجهيز جيشه ، فعسكر على شاطئ النيل أمام دلقة وأرسل إلى الشيخ عتمان بالتسليم في مدة لا تزيد على خمسة أيام .

كانت القوة التي نحت إمرة عتمان قليلة جداً ، فجعل يعرض خيله للشمس طوال اليوم ، ويلحفها علفاً جافاً ، ويصبغ جلودها كل يوم بلون مختلف من ألوان الأتربة والكلس ، ثم يرسلها لتشرب من النيل في وقت الغروب فتتراءى للعدو أصراباً مختلفة من الحيل . وبهذه الحيلة خدع ود عجيب ، وأوهمه أن لديه من القوة خمسة أضعاف ما كانت عليه في حقيقة الأمر . ففزع ود عجيب فزعاً شديداً ، حتى أنه في اليوم السادس ، الذي كان مقرراً أن يحمل

(١) دلقة جزيرة جنوبي بلدة مروى على مسافة تقرب من ستة وخسين ميلاً على خط العرض ٥٣،١٨ .

ود عجيب فيه على جيش عتمان ، أرسل إلى عتمان لمفاوضته .
وخشي عتمان أن يغدر ود عجيب بجيشه ، فعبّر إليه بمفرده ، من
طرف الجزيرة ، بعيداً عن مرأى معسكر العبدلاب ، ومضى
حتى وصل إلى الشيخ ود عجيب وهو راكب جواده ، ولم يكن
ود عجيب يتوقع هذا الصنيع من عتمان . وكاث ود عجيب
حينئذ جالساً على الأرض يلعب (المنقلة) مع أتباعه ، (وهي
نوع من لعبة الضامه) .

فلما نزل عتمان عن ظهر جواده عثرت قدمه بركاب السرج
فبادر ود عجيب إلى أحد أتباعه ، وأسر إليه قائلاً : « إن الله
سلمه إلى أيدينا . فأسرع إليه واقتله » .

ولكن شاكياً من أصدقاء عتمان ، كاث مجلس في مجلس
ود عجيب ، وسمع ما قاله هذا ، فصرخ قائلاً باللهجة الشايقية :
« وحياء الرب شرك أم حبيبة في رقيبك طب ، ومعناها » انج
بنفسك قبل أن يقع فخ الطير في رقيبك » . ولم يفهم العبدلاب
ماقال الشايقى ، ولكن فهمه عتمان ، وسرعان ما قفز على صهوة
جواده ومضى به مسرعاً إلى ضفة النهر ، وانطلق إلى النهر فشق
عبابه ، هو والجواد ، حتى بلغ دلقة .

ولم يكن بد من أن يعمل عتمان للقضاء على جيش العبدلاب
في وقت مريع ، فدعا رجاله جميعاً ، فجمعوا دوابهم ومعيزهم
وماشيهم ، وكل ما عثروا عليه من القش والحطب .

فلما غربت الشمس ، عبر هو وجنوده وما معهم من الحيوان الى شاطئ النيل بعيداً عن مرأى معسكر ود عجيب .

وجمعوا حيوانهم ، وربطوا على ظهر منها كل حزمة من القش والخطب . وفي منتصف الليل ، عندما كان ود عجيب وجنوده نائمين ، سبقت هذه القطعان الكبيرة من الحيوان إلى مكان قريب من معسكر الأعداء . وأشعلت النيران في القش والخطب ، فانطلقت القطعان بحفلة في اتجاه معسكر العبدلاب حتى توسطت الجنود النائمين . فأحدث بينهم ذعراً واضطراباً . وانطلق عثمان ورجاله خلف هذه الكتل المشتعلة وهم يتصاحجون صيحات الحرب الرهيبة المفزعة .

وأفلحت هذه الحدة ، ولاذت جيوش العبدلاب بالفرار متفرقين مشتتين ، تاركين زعيمهم الشيخ الأمين ود عجيب ، وقد أنف أن يلوذ بالفرار ، ففرش فروته (١) في انتظار الموت . ورآه عثمان على هذه الحال ، فوعده ، وهو شاهر سيفه ، أن يعفو عنه ، على أن يضمن له استقلال الشايقية .

وقطع ود عجيب له الموائيق بذلك ، وتأكد استقلال الشايقية منذ ذلك الحين .

(١) توضع الفرو عادة فرشاً على ظهر الجواد .

هذه هي القصة كما يرويها الشايقية^(١) ، ولكن ليس من البسير أن نعرف مدى صحتها .

ومن المحتمل أن تكون هذه الأحداث قد وقعت حوالي سنة ١٦٩٠ أو قريباً من ذلك . لأن ود عجيب نفسه قتله الملك بادي حوالي ١٧٠٢^(٢) ولأن الرحالة بونسيه^(٣) الذي كان في كورتي في يناير ١٦٩٩ ، يخبرنا أن منطقة الشايقية لم تكن مأمونة للعبور فيها ، بسبب الثورة التي أعلنها الشايقية ضد ملك سنار . ومن الجائز أن يكونوا في ذلك الحين يتذوقون أولى ثمار استقلالهم .

(١) رواها لي محمد علي بليو عمدة السواراب ، وهو الحفيد الأكبر للشيخ عبود ، الزعيم المعروف عندم الذي حارب في معركة كورتي .

(٢) هذا التاريخ هو ما ذكرته المخطوطة التي أشرنا إليها في مستهل هذا الفصل .

(٣) انظر رحلات بونسية ، الترجمة الانجليزية ص ١٥ .

الفصل الثالث

نهضة الشايقية

في مستهل القرن الثامن عشر ، نجد الشايقية ، قد نفضوا عن كواهلهم الولاء والتبعية لسلطنة سنار ، واستجمعوا قوتهم ، وتطلعوا إلى الشهرة ، وكان ذلك أحد العوامل الحاسمة في تاريخ السودان الشمالي ، في حين ظلت بقية ولاية دنقلة ، خاضعة لسلطنة الفونج .

في ذلك الوقت انصرف أمراء الفونج الى متاعب داخلية ، فكانت شغلهم الشاغل . ويتضح هذا من الفقرة التالية التي نقلها عن المخطوطة الآتفة الذكر :

« ثم في ذلك الحين (أي في ١١٣٧ هـ - ١٧١٣ م) تولى بعده أي بعد بادي الأحمر) ابنه « أونسه » فاتبع هواه واستسلم للهو واللعب وأفرط في ذلك حتى انتهى خبره الى الفونج في الجنوب . . فعزموا على عزله . . وذهب عنه سلطانه وكان

ذلك في سنة ١١٣٠ هـ ، وذهبت معه سلطنة الفونج وانتزعت من أيديهم .

« وفي سنة ١١٣٥ هـ تولى العرش الملك بادي أبو شلوخ وكان آخر ملوك الصولة والشوكة ، فلم تكد تنتهي مدة حكمه حتى سيطر مشايخ « الهمج » على أزمة الحكم فصاروا جرياً وراء التقليد ، يعينون ملوك سنار ، ولكنهم من الوجهة العملية ، كانوا هم أصحاب السلطة والنفوذ فقد جمعوا كل سلطات الملك في أيديهم .

« في هذه الفترة (١١٧٥ هـ - ١٧٦٢ م) انضمت قوة الفونج وأصبحت السيادة في أيدي الهمج . وقد كان للشيخ محمد أبو لكيلك النفوذ الأقوى على الملك وقد قتل من زعماء الفونج عدداً كبيراً ، .

ولما انصرف أمراء سنار انصرفاً تاماً إلى متاعهم ومشاكلهم الداخلية وهزم الشايقية شيخ العبدلاب ، انصرم ذلك الحيط الضعيف الواهي من النفوذ الذي كانت الفونج قد فرضوه على دنقلة من قبل . ولم يكن هذا النفوذ قد استمر زمناً طويلاً قبل أن يفلح الشايقية في تنصيب أنفسهم سادة على ولاية دنقلة بأسرها . ولعل قولنا ذلك الحيط الضعيف الواهي من النفوذ ، يحتاج إلى شيء من الإيضاح ، فكثيراً ما نقرأ لمؤرخي عصر الفونج ، وما رواه الفونج أنفسهم للرحالة الأجانب الذين زاروا بلادهم من

أمثال بونسيه وبروس وكابو ، أخباراً تلقي في روع المرء أن الفونج كانوا ذوي السيادة المطلقة على السودان من شلالات حنك إلى حدود الحبشة منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر .

وفي رأيي أن هذا الزعم ، بالنسبة إلى السودان الشمالي ، وولاية دنقلة بنوع خاص ، هو زعم خاطيء كل الخطأ . فإن تلك الروايات التي أخبر بها الفونج على سبيل الفخر والمباهاة ، إنما تدلنا على عكس ما يفهم منها . فهي دليل آخر على ذلك الغرور الجامع الذي عرف به الافريقيون^(١) (كذا ! !) فليس لدينا أي دليل على أن سيطرة الفونج على دنقلة كانت شيئاً خلاف ما زعموا من أخبار هي غاية في الضعف .

أظن أن الباحثين قد وقفوا وقفة أطول مما ينبغي عند هذه الحقيقة المقررة وهي أن ولاية دنقلة قد أدت لسلطان سنار ، في خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وشطر من القرن

(١) لا أدري على أي أساس جعل المؤلف صفة الغرور الجامع مختصة بقارة افريقية وسكانها . والمؤلف ها هنا بصدد إثبات أن دنقلة لم تكن تابعة للفونج تبعية قوية . وقد نسى أن أوائل الذين قتلوا بهذه التبعية ، ليسوا من الافريقيين ولكنهم الاربويون من أمثال بريفيدنت القسيس اليسوعي ، وبونسيه الطبيب الفرنسي . وقد أشار كرافورد في كتابه (مملكة الفونج في سنار : ص ٢٩٤ - هامش إلى هذا ، وبين خطأ رأي المؤلف في هذا الصدد (المترجم) .

الثامن عشر ، نوعاً من الجزية (ونحن لانعرف ما إذا كانت سنوية أو كانت تؤدي بانتظام ، وما هي قيمتها) .

وهذا ، فيما يبدو لي ، ليس دليلاً كافياً لاثبات السيادة المطلقة ، ولكنه يدل ببساطة على أن أمراء دنقلة قد أوجسوا خيفة من الأتراك العثمانيين ، وكان لهم كل الحق في ذلك ، فدفعوا لملوك سنار جزية بمحض ارادتهم ، حتى يجنوا ثمار المودة والتفاهم الذي كان بين الفونج والسلطان سليم . ذلك التفاهم الذي وطد دعائه الامام السمرقندي بما قام به بين الطرفين من خدمات طيبة . فاذا كان هناك ادعاء بأن دنقلة جزء من امبراطورية الفونج ، فان الدناقلة اثما أرادوا أن يأمنوا جانب العدوات التركي بما كانوا يقدمونه للفونج من مال هو بمثابة رشوة لهم .

ليس لدينا دليل على أن أمراء الفونج قد تدخلوا أي نوع من التدخل في تولية أمراء دنقلة على اختلافهم ، أو أن أية خدمة عسكرية قد طلب اليهم أن يؤدوها . ولا يشير أي مصدر من المصادر التاريخية إلى أنه كان للفونج أفراد أو عملاء يقيمون في أي قصر ملكي من قصور دنقلة على اختلافها ، أو أن ملوك الفونج قد تدخلوا في شئون دنقلة الداخلية أو عاقبوا أحداً من الدناقلة لأنه رفض أداء الجزية .

وهذا ، فيما أظن ، دليل كاف على أن دنقلة لم تكن يوماً

جزءاً من امبراطورية الفونج . أضف إلى ذلك أن أمراء دنقلة حين كان الشايقية يهاجمون ، لم يطلبوا من الفونج معونتهم .

لم يعزل الشايقية أمراءهم الوطنيين ، بل عينوا عمالاً في كل بلاط ، كانت مهمتهم أن يجلبوا من كل أمير نصف إيراده (١) ، وأخذت جموع من فرسان الشايقية ، يطوفون البلاد من كورتى إلى حنك بقصد الاغارة والسلب ، فنهبوا وخربوا وأثاروا الرعب والفرع في نفوس الأهالي . وكان من جراء ذلك التخريب الذي أحدثته هذه الجموع أن هاجرت جماعات هائلة من السكان إلى كردفان ودارفور وبربر .

وقد وجد براون الذي زار دارفور في الفترة التي بين ١٧٩٢ ، ١٧٩٨ ، جالية كبيرة من أهالي دنقلة في « حلة حسن » بالقرب من القبة ، وفي القبة أيضاً . يقول براون : « معظم تجار القبة يفدون من نهر النيل ، والظاهر أنهم هم أول من اكتشفوا

(١) يقول بر كهارت في (رحلات في النوبة ص ٧١) : « وكان عرب الشايقية ، منذ أن كان لهم نصيب من الايراد ، يأخذون عن الأرض التي ترونها السواقى ، أربعة (موريات) من الدرة عن كل ساقية ، ورأسين أو ثلاثة من الأغنام ، وثوباً من الكتان قيمته دولاران . وكان الملوك الوطنيون يأخذون كذلك مثل هذا المقدار . ملاحظة : الموريات التي وردت في نص بر كهارت جمع مورى وهو من المكاييل القديمة يساوي حوالي ثلاث كيلات (المترجم) .

الطريق المباشرة التي تصل بين مصر ودارفور . فمنذ سنوات عديدة ، كانت بلادهم التي نزحوا منها ، في دنقلة والمحس وحدود النيل كلها إلى سنار ، وهي بلاد - فيما يروى - أفضل من دارفور في جميع الميزات الطبيعية - كانت مسرحاً للتدمير وسفك الدماء ، فلم يكن فيها حكومة مستقرة ، وكانت الانقسامات الداخلية - على الدوام - تعمل على تمزيقها ، وغارات الشايقية وسائر القبائل القاطنة بين النهر والبحر الأحمر تلقي الرعب في نفوس الناس ، .

وهناك جالية كبيرة من قبيلة الطريفية نزحت من كورتي وأمبيجول وهي الآن تقطن في القبة . كما أن هنالك جماعة صغيرة في قرى (مديرية الخرطوم) . وفي كردفان كذلك كثير من البديرية والدناقلة وكان عدوان الشايقية قد أجلاهم عن دنقلة .

ويروي كايو ^(١) ان حملة اسماعيل باشا ، حين بلغت مديرية بربو ، وجدت أربعمائة أمرة كانت قد لاذت بالفرار من دنقلة بسبب تعدي الشايقية عليهم .

والظاهر أن الملك الوحيد من ملوك دنقلة الذي قاوم الشايقية هو ملك أرجو ، فقد عبأ جيشاً كثير العدد من الجنود المغاربة ، وسار به إلى حدود دار الشايقية .

ونشب معركة عنيفة عند قاعدة جبل دجر ، وانهزمت

(١) رحلة الى مروي : المجلد الثاني .

جيوش ملك أرجو وقتل منها خلق كثير . وعلى أثر ذلك اشتد نفوذ الشايقية في دنقلة . وفي أثناء النصف الأخير من القرن الثامن عشر كانت دولة الفونج تمار انهياراً حشياً .

وأفلت العبدلاب من ربة الفونج فلم يجدوا أمامهم سوى الشايقية يثيرون في نفوسهم الذعر والفرع ، إذ قامت عصابات الشايقية من الفرسان ، بتخريب البلاد الواقعة على الضفة الغربية من نهر النيل حتى واجهوا حلفاية . بل هاجموا حلفاية ، ودحروا العبدلاب (١) .

ويحكي كايو (٢) أن أهالي حلفاية ، قبل وقوع غارات الشايقية ، كان عددهم تسعة آلاف ، وبعد وقوعها قل هذا العدد حتى كان في سنة ١٨٢٢ ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف .

ويقول بركهارت (٣) : « قبل أن يصل الممالك إلى دنقلة (سنة ١٨١١) ، كان الملك ثمر (ملك سندي) في حروب متواصلة مع عرب الشايقية الذين كانوا قد قتلوا كثيراً من أقربائه في المعارك ، كما أنهم أغاروا على بلاده عدة مرات ، جموع

(١) وتتفق الروايات التي يذكرها العبدلاب والشايقية في هذه النقطة .

(٢) رحلة إلى مروي . المجلد الثاني ص ١٩٤ .

(٣) رحلات في النوبة ص ٢٤٨ .

كبيرة من الفرسان ، وتركوا كعادتهم كل الضفة الغربية للنهر خراباً بلقعا ، .

وبينا كان الشايقية منصرفين إلى تلك الحروب والحملات ، كان العبيد والأمري من النوبيين يتعهدون أراضي الشايقية بالري والزراعة .

ومن ثم كانت معظم المصطلحات اللغوية التي تتعلق بالساقية والزراعة عند الشايقية ، ولا تزال إلى اليوم ، مستمدة ، بوجه عام ، من اللغة النوبية .

وفي خاتمة القرن الثامن عشر يصبح الشايقية أقوى قبيلة في السودان الشمالي ، تثير الرعب في جميع البلاد الممتدة من حلفاية إلى حدود المحس .

يقول كايو : « بعد زوال مملكة سنار ، أصبح الشايقية جبابرة في نظر جيرانهم . وقد عانى أهالي دنقلة وبربر وحلفاية ما عانوه على أيدي هؤلاء القوم الجسورين - قوم نشأوا محاربين نساء ورجالاً ، . »

الفصل الرابع

المهاليك

ظل الشايقية أصحاب السيادة المطلقة على دنقلة حتى قدم المهاليك من مصر فأحدثوا الصدمة الأولى في قوة الشايقية .

كان محمد علي قد عين والياً على مصر في ربيع ١٨٠٥ م ، وأخذ منذ البداية في العمل على القضاء على المهاليك أصولاً وفروعاً ، ومنذ هذا العام حتى عام ١٨١١ ، عندما وقعت مذبحة القلعة الكبرى ، أخذت تتكرر مذابح المهاليك في كل عام . وهرب عدد كبير منهم من تلك المذابح إلى بلاد النوبة . فلحق بهم إبراهيم بن محمد علي ، وهزمهم في وادي قوزمته^(١) وهو في منتصف الطريق بين أسوان والدر .

وبعد هذه المعركة ، انقسمت فلول المهاليك إلى طائفتين احدهما تحت امره إبراهيم بك وهو الذي قد هرب من مذبحة القلعة في

(١) بر كهارت (رحلات في بلاد النوبة ص ١٢) .

القاهرة ، بأن قفز بحصانه من فوق شرفات القلعة إلى الحندق
في أسفلها ، والأخرى بقيادة عبد الرحمن بك ، وهربوا إلى
الجنوب ، حتى بلغوا دنقلة . وسارت إحدى الطائفتين على امتداد
ضفة النهر الغربية يخربون البلاد في طريقهم . أما الطائفة الأخرى
فقد آثرت تقصير المسافة فشقت طريق الصحراء .

والتقت الطائفتان مرة أخرى على ضفاف النيل بالقرب من
شلالات حنك في سنة ١٨١١ ، واحتشدوا حشداً واحداً يبلغ
عدده كما قدره بركهارت ، حوالي ٣٠٠ من المماليك البيض ،
وكثيراً من العبيد المسلحين ، ويقدر مجموع هذه القوة المحاربة بما
يقرب من ستمائة رجل . أما وادنجتون فقد قرر عددهم بضعفي
هذا العدد على وجه التقريب . وأراني أميل إلى قبول تقدير
بركهارت .

ولما بلغوا حنك وجدوا محمداً كاشف المحس ، في قتال مع
الملك طنبل ملك أرجو ، الذي كان قد أحس بضغط جنود
الكاشف عليه ، فأغلق على نفسه أبواب قصره الحصين القائم على
جزيرة تنبس^(١) .

حاول محمد الكاشف أن يغري المماليك لكي ينحازوا إلى
جانبه ضد الملك طنبل ، ولم يلبث أن اختلف المماليك فيما بينهم

(١) وادنجتون وهانبري ، في الرحلات ص ٢٢٥ .

في الجانب الذي ينبغي أن يساندوه . ومع ذلك فقد قر رأيهم
أخيراً على أن يلقوا إلى جانب ملك أرجو ، فساروا إليه .
وأحب محمد الكاشف أن يقتص من الماليك ، فلجأ إلى محمد
علي باشا يستنجد به .

كان يقيم في أرجو ، في ذلك الوقت ، محمود العدلانابي ،
أحد نواب الشايقية ، فأخبره الماليك أنهم ليس في نيتهم أن
يبقوا في دنقلة ، وإنما مروا بها في طريقهم إلى سنار التي عقدوا
النية على السكنى بها . وقد أحسن محمود العدلانابي وفادتهم ،
وأهدى اليهم كثيراً من الخيول والجمال والعبيد والمؤن .

يقول بر كهارت ^(١) : د بالرغم من أن هؤلاء الهاربين
الغادرين لم يكونوا قد مكثوا في أرجو شهراً ، فقد قتلوا صاحب
الفضل عليهم ، بحجة واهية ، وقتلوا معه عدداً كبيراً من أتباعه ،
ثم بسطوا سلطانهم على البلاد وخربوا ممتلكات الشايقية ، واستولوا
على الأيراد . وفي أثناء ذلك انضم أحد ملوك أمرة الزبير ،
وهي الأمرة الحاكمة في أرجو ، إلى الماليك ضد الشايقية ، أما
عم هذا الملك ، واسمه طنبل بن الزبير فقد سافر إلى مصر يطلب
معونة من الرجال والسلاح لمحاربة الغزاة الطارئين الذين انضم اليهم
فيلق آخر من الشايقية ، يربو عدده على ثمانين فارساً وهم الأعداء

(١) رحلات في بلاد النوبة ص ٦٦ .

الألداء لقبيلة محمود العدلاني . ومنذ ذلك الحين اشتبك الممالك
في حرب مستمرة مع الشايقة وقتل من الطرفين كثير من
الأفراد .

واستقر الممالك في حلة مراغة ، وهي على بعد ثلاثة أميال
شمالي دنقلة الحالية (العرضى) ، واتخذوها عاصمتهم ، وبنوا لأنفسهم
مباني منسقة جميلة .

والظاهر أنهم لم يكونوا جميعاً سعداء في موطنهم الجديد إذ
يخبرنا بر كهارت أن (كثيراً من الممالك ماتوا في الصيف الماضي
من تأثير حمى التيفوس ، التي تنفشى في دنقلة بانتظام في موسم
الصيف وتقضي على عدد من سكانها . وقد عجز الممالك عن تحمل
الحرارة وهم في ملابسهم الصوف الساخنة ، التي مازالوا يلبسونها ،
ولذلك أقاموا عدداً من الأطواف العائمة على الماء ، يقضون فيها
زمن الصيف تحت ظلل من الحصر ، يتولى العبيد ترطيبها بالماء
على الدوام) . أضف إلى ذلك أن الشايقة كانوا يلقون دائماً
في نفوسهم الرعب والقلق بخيالهم الجريئة المقتحمة .

ومع ذلك فالظاهر أنهم أفادوا البلاد التي حكموها بعض
الشيء إذ علموا أهلها كثيراً من المعارف التي حسنت أساليب
الزراعة بينهم ، ويقال أن زراعة القمح تعزى إليهم .

واديهم وادنجتو أن الجزء من البلاد الذي حكمه الممالك ،
كان يروى فيما يبدو بطريقة أحسن من تلك التي كانت متبعة في
سائر المديرية . كما أن سكانه كانوا أكثر تقدماً ومدنية . ومع
ذلك كانوا حياة قساة يأخذون من الأهالي ثلث محصولهم ضريبة لهم .

وقد امتد سلطانهم من حدود المحس إلى حلة الحندق في حين
كانت بقية المديرية في أيدي الشايكية .

كانت غارات الشايكية الذين مروا على النهب والسلب تساور
منطقة الممالك فأحفظهم ذلك وعقدوا النية على مهاجمتهم ، فسيروا
حملة في يناير ١٨١٢ اتجهت من مراغة إلى دار الشايكية . وبينما
هذه الحملة تشق طريقها كانت فرقة من الشايكية قد عبروا الصحراء
من مروي بطريق « محيلة » ، وهاجموا أرجو واستولوا عليها
وأوقعوا خسائر بالغة في ما خلفه الممالك من أمتعة وممتلكات
في مراغة .

وعندما بلغ جيش الممالك خبر اغارة الشايكية على منطقتهم ،
انقسموا إلى فرقتين ، فرقة كانت تحت إمرة إبراهيم بك ، رجعت
إلى مراغة ، لتقاوم المغيرين من الشايكية في حين تقدمت الفرقة
الأخرى بقيادة عبد الرحمن بك إلى دار الشايكية بجذاء الضفة
اليسرى من نهر النيل . ونشبت معركة في حلة « حثاني » بالقرب

من جبل دتماكه ، وهي لم تكن فيما يقال معركة فاصلة ^(١) .
وقد عاد الممالك بعدها إلى مراغة .

وسواء أكانت المعركة غير فاصلة أو فاصلة ، فإن تأثيرها في
الشابقية ، كان مشعراً ، إذ لم تلبث اغاراتهم على منطقة الممالك
أن توقفت تماماً ، وبذلك استطاع الممالك أن ينصرفوا في حرية
إلى بذل نشاطهم في تحسين البلاد التي استولوا عليها .

(١) اخبر الملك طنبل ملك أرجو الرحالة وادنجتون أن الممالك
مزمووا الشابية في كريج وقتلوا منهم ١٥٠ شخصاً . ثم ذكر طنبل
أنه كان في الحملة وان النصر كان باهراً إلى أقصى حد (راجع
الرحلات ص ٢٢٨) .

وهذا غير محتمل إلى حد كبير ، وأخشى أن يكون الملك قد أخذه
نشوة التمجيد فألسته الحقيقة .

الفصل الخامس

الغزو التركي

في سنة ١٨٢٠ تحولت الأحداث الجارية إلى وجهة مختلفة .
فما يروى أن محمد علي كان يطمح إلى الاستيلاء على جميع شواطئ
النيل وجزره ، وإلى السيطرة على كل الذين يشربون من ماء النيل
من بلاد الحبشة إلى البحر الأبيض المتوسط .

ففي ربيع ١٨٢٠ عقد النية على السعي في تحقيق مطامحه
هذه ، ولذلك جهز حملة تتألف من عشرة آلاف مقاتل مزودين
بأنتي عشرة قطعة من المدافع لاختضاع القبائل التي تسكن وادي
النيل . وجعل قيادة جيشه لابنه الأصغر اسماعيل باشا الذي بلغ
من العمر في ذلك الوقت اثنتين وعشرين سنة .

غادرت الحملة القاهرة في مستهل الصيف ، وكان مهالك مراغة
آنئذ قد نقص عددهم بتأثير الحروب والحمى حتى بلغ - على حد
تقدير كايو - ثمانين رجلاً . فما أن سمعوا بحملة القاهرة ، حتى

جمعوا في شهر يونيو بقاياهم ، ومعهم عبيدهم المساحون ، ونفضوا
عن أقدامهم غبار مراغة ، وخرجوا يقصدون إلى شندي فاخترقوا
من بلدة كورتي صحراء بيوضة .

ولما علم الشايقية بنحبر رحيلهم ، دبروا لهم كميناً بالقرب من
كورتي ليقطع عليهم الطريق مباغته ، ولكن الممالك كانوا أحرص
منهم ، فتنهوا إلى صنيع الشايقية ، وفاجؤهم في مكانهم ، وأمروا
منهم عدداً كبيراً ، وقتلوا هؤلاء الأمرى على الفور ثم مضوا
في طريقهم إلى شندي ^(١) .

ولم يكد الممالك يغادرون منطقهم ، حتى بادر الشايقية إلى
مباغته البلاد التي كان الممالك قد استولوا عليها ، وجعلوا يعملون
فيها نهياً واحرقاً وتخريباً ، وأمروا عدداً من السكان ، وحملهم
إلى دار الشايقية لكي يزرعوا الأراضي ، ويساعدوهم على قتال
الأتراك .

ولم يكفوا عن ذلك ويرجعوا إلى دارهم إلا عندما وصل
جيش اسماعيل باشا .

وصل الممالك إلى شندي ، وعسكروا خارج المدينة . وظلوا
إلى أن أمرهم ملك شندي ، وكان قد سمع بانتصارات اسماعيل
باشا على الشايقية ، أن يرحلوا عن بلاده ^(٢) . فحينئذ تشتت

(١) وادنجتون وهانبري ص ٢٣٠ .

(٢) وانجتون وهانبري ص ٢٣١ .

مثلهم ، ففريق اتجه إلى دار فور ، وفريق إلى البحر الأحمر ،
وقليل منهم آثر العودة إلى مصر من طريق الصحراء النوبية ،
حيث يقال إن قبائل البشاريين قتلهم في الطريق .

ومنذ ذلك الحين انزوى الممالك عن التاريخ ، ولم نسمع
عنهم شيئاً .

أما حملة اسماعيل باشا ، فقد كانت مجهزة بعشرة آلاف رجل ،
معظمهم من الأتراك والألبان والمغاربة بقيادة عابدين كاشف وحسن
دار وسلحدار وعمر كاشف ، ومعهم ١٥٠٠ من البدو بنجلهم
وجملهم يقودهم خوجة أحمد ، وقد لحق به عند أسوان حشد كبير
من عرب العباددة (١) .

مضى اسماعيل وجيشه في طريقهم دون أن يعترض سبيلهم أحد
حتى بلغوا دنقلة الجديدة (العرضى) .

كان أقوى ملوك الشاذلية في ذلك الحين ، الملك شاؤس
(ويجرف اسمه أحياناً فيسمى شاووش) ملك العدلاناب ، وكانت
عاصمتهم في مروي ، والملك صير ملك الحنكاب وكانت
عاصمتهم حنك .

وكان هناك ملكان آخران أقل شأنًا ، هما الملك مدني ملك

(١) نفس المرجع ص ٩٣ .

كجى ، والملك حمد ملك العَمَراب . فلما اقترب الاتراك من بلادهم ، تكتل الشايقية جميعاً ، نحت امرة شازس وصير وكان الأول قائدهم .

يقول وادنجتون : « عندما وصل الباشا التركي إلى دنقلة ، أصدر أوامره إلى الشايقية بأن يعلنوا الخضوع لسلطان محمد علي ، فأبدوا اليه الرغبة في أن ينصرفوا إلى زراعتهم وأن يدفعوا له الجزية . فطلب الباشا أن يشتوا له حسن نيّتهم ، بأن يرسلوا اليه أسلحتهم وخيولهم ، فأعادوا عليه قولتهم الأولى . فأجابهم الباشا بأن أباه قد أمره أن ينشئ منهم شعباً من الفلاحين لا شعباً من المحاربين ، وطلب اليهم مرة أخرى أن يسلموه الأسلحة والخيول .

حينئذ أجابوه في تحدّ قائلين : « إما أن تذهب لحال سييلك أو تأتي فتحاربنا ، فسير الباشا جنوده إلى حدود بلادهم .

كان أول دماء سفكت في حلة سلقى حيث قتل الشايقية خمسة من العساكر الألبانيين .

وبدأت المعركة بناوشة وقعت قريباً من دنقلة العجوز حيث باغت فريق من الشايقية الحيلة اسماعيل باشا ، وبعض ضباطه ، وقليل من الجنود ، الذين كانوا قد انفصلوا عن الجيش الرئيسي ، ومع ذلك استطاعوا أن يصدوا الشايقية دون غناء .

واصل اسماعيل التقدم بمحاذاة الضفة اليسرى من النيل دون أن يلقى مقاومة ما حتى بلغ قريباً من كورتي . وهنا يروي عابدين كاشف ثاني قواد الجيش التركي ، أن الشايقية قد مزقوا طليعة استكشافية تتألف من مائة من فرسان البدو ، فقتلوا منهم سبعين ، وجرحوا عشرين . وفي هذه البقعة تجمع الجيش الرئيسي للشايقية لصد الغزاة .

وبالقرب من المكان الذي تقوم فيه حلة كورتي الحالية ، وقعت معركة حامية الوطيس ، انتهت بهزيمة الشايقية .

وكان في صفوف الشايقية فتاة ، تدعى مهيّرة بنت الشيخ عبود شيخ السواراب ، تركب جملاً مزداناً بالجلي والأدوات الفاخرة ، فأعطت إشارة البدء بالقتال بأن أطلقت الزغاريد ، فاندفع فرسان الشايقية يخوضون المعركة في قوة ومهارة ، وكان هجومهم عنيفاً جداً حتى أن البدو والمغاربة الذين قاتلت منهم طلائع الجيش التركي ، قد ارتدوا وهم مضطربو النظام الى الجيش الرئيسي .

ووافى عابدين كاشف للانقاذ ومعه خياله ، وشد على الشايقية ثلاث مرات مربعة متلاحقة ، حتى كبس جاحمهم ، وحتى استطاع البدو والمغاربة أن يلهموا شتاتهم ويصمدوا للمعركة من جديد . وأصبحت نتيجة المعركة ، في لحظة من اللحظات ، موضع الشك

بالنسبة للطرفين المتحاربين . ولو أتيح للشايقية أن يتخذوا الأساحة النارية ، ويعرفوا كيف يستخدمونها ، لدرت الدائرة على الأتراك . ولكن الشايقية ، كانوا في الواقع مسلحين بأشد أنواع السلاح بدائية ، فلدى كل منهم ومخان ، وسيف عربض النصل ، ودرع من جلود وحيد القرن ، وقليل من زعمائهم لبسوا أردية من الزرد ، وملكوا بعض الطبنجات .

عند تلك اللحظة الفاصلة ، أشار اسماعيل باشا الى الجيش الرئيسي فأطلقوا عدة طلقات نارية سريعة ، وكان لها آثار مميّنة ، في حشود الأعداء المتلاصقة .

ولم تعد النتيجة موضع شك ، فقد فر فرسان الشايقية في هلع ورعب ، أما المشاة منهم ، فقد انبطحوا على وجوههم ، ووضعوا دروعهم على رؤوسهم يتقون بها طلقات العدو ، وابتهلوا اليه أن يرحمهم .

وقد انجلت المعركة عن ستائة قتيل وجريح من الشايقية ، تسعون في المائة منهم كانوا من المحاربين المشاة .

وكان المشاة في جيش الشايقية يتألفون في معظمهم من النوبيين الذين أمرهم للشايقية في أثناء غاراتهم المتكررة على دنقلا . وقد وقع عدد كبير من هؤلاء المشاة في يد اسماعيل فارسلم إلى قراهم . لقد حارب الشايقية بشجاعة وجسارة عظيمنتين ، وحازوا إعجاب

أعدائهم . وقد وصف وادنجتون طريقتهم في القتال فقال : « إن لديهم في الهجوم جراءة نادرة لا نظير لها ، يركبون إلى الأعداء ويواجهونهم مواجهة قريبة ، وقلوبهم تنفث إلى اللقاء ، في خفة وابتهاج كأنهم ذاهبون إلى احتفال أو عيد ، وبعلو وجوههم السرور كأنهم يلقون أصدقاء اشتد بهم الشوق إلى رؤيتهم بعد طول غياب . فإذا واجهوا العدو بادأوه بقولهم : « السلام عليكم » - سلام المنية التي نوافي تلك الرماح والتي تعقب هذه التحية مباشرة . وتتوالى الطعنات يعطونها ويأخذونها ، وعلى ألسنتهم تتردد ألفاظ الحب والمودة . هذا الازدراء للحياة ، وهذه السخرية بأشد الأشياء أخافة وإرهاباً ، هو صفة لازمة لهؤلاء القوم - إنه الشعب الوحيد الذي يتخذ من الأسلحة لعبةً يتلها بها ، ومن الحرب رياضة محببة إلى نفسه . لا يتطلبون من أعدائهم شيئاً سوى التسلية ، ولا يخافون من الموت شيئاً سوى أنه راحة لأبدانهم .

« وفي هذه السبيل أتيح لهم من البواغث ما أكد عندهم ما توارثوه من شجاعة جرت مجرى الفطرة في نفوسهم . فقد عاشوا رفاقاً ملازمين لخيولهم ، ورماحهم في أيديهم ، ثم تغيرت حالهم ، فأجبروا على أن يتخلوا عن خيولهم للغرباء ، وأن يستبدلوا برماحهم زحافات لتسوية الأرض المزروعة ، ومقاضب لتشدب الشجر .

وأرغوا على أن يسوقوا الثور حول الساقية بعد أن كانوا يطاردون العدو عبر الصحراء . وكانت لديهم كثير من النوبيين الذين استوطنوا بلادهم ، واضطروهم الشاقية على أن يقوموا بجميع الأعمال الخاصة بري الأرض وزراعتها ، وكانوا ينظرون إلى النوبيين على أنهم دونهم كثيراً في المرتبة . أما الآن فقد دعوا إلى أن يؤدوا بأنفسهم هذه الأعمال التي تعودوا أن ينظروا إليها على أنها أليق بالعبيد والخدم . وصاروا لا يتوقعون من أحد معاملة أحسن مما كانوا قد تعودوا عليه من قبل . لقد قضى عليهم أن ينحدروا إلى العبودية دفعة واحدة ، بعد أن كانوا ، ليسوا أحراراً فحسب ، بل طغاة جبارين كذلك .

ويقول كايو إن معظم المشاة في جيش الشاقية كانوا سكارى^(١) ، وأن كثيراً منهم كانوا يلقون بأنفسهم ، في تمور واندفاع ، على بنادق الجنود الأتراك ، وقد حملوا في أيديهم أوعية الشراب المسكر ، وبدت على وجوههم علامة السرور كأنهم يشتركون في احتفال أو عيد .

وذكر وادنجتون أن خسائر الأتراك قد أسفرت عن جرح ضابط واحد وستة عشر جندياً . وهذا قد يصدق على الأتراك

(١) هل هذا صحيح ؟! فكيف يتفق هذا الكلام مع أقوال الرحالة الآخرين الذين لم يشيروا إلى هذه المسألة (المترجم) .

أنفسهم ، أما عن حلفائهم من البدو والمغاربة فلا بد أن الحسائر بينهم كانت فادحة ، إذ أنهم هم الذين تحملوا معمعان القتال في هجوم الشايقية . وقد قدر كايو عدد القتلى ثلاثين والجرحى ثمانين وربما كان هذا أقرب إلى الصحة .

بعد انتهاء المعركة ، استسلمت قرى البلاد المحيطة ، للغراب والحرائق ، وارتكب الغزاة صنوفاً مروعة من الوحشية والفظاعة ضد الأعداء الذين كانوا قد قاوموهم في شهامة وبسالة .

وأعلن اسماعيل باشا عن مكافأة قدرها خمسون جنياً لكل من يحضر له أذنين لأي شايقي قُتل في الحرب ، حتى يرسل ما يجمعه من الآذان المصلّمة إلى والده محمد علي شاهداً على نجاحه الباهر . وكان من أثر ذلك أن أصبح لا يقف الأمر عند تسليم آذان الذين قتلوا وجرحوا في ساحة القتال ، بل تعدى إلى هؤلاء الأبرياء الذين لم يشتركوا في المعركة ، ولم يلمسوا ذلك في الرجال وحدهم بل في النساء كذلك . والذين قاوموا منهم ، كانوا إذا لم يقتلوا فوراً ، تشوه أجسامهم بصورة مفزعة ، أما القتلى والجرحى فقد تركوا راقدين حيث كانوا ، تنهشهم سباع الطير وتتخذهم طعاماً لها .

وفيما يلي نورد فقرة من كلام كايو ؛ وهي تلقي ضوءاً قائماً على ما حدث بعد انتصار الاتراك :

هرب بعض الشايقية إلى أوطانهم ، ظانين أن أعداءهم
سيبقون على الرجال العزل - ولكن أملهم كان صواباً ، فقد
انتشرت الجنود الثائرة الهائلة كالسيل الجارف ، تجلب معها ،
حيث حلت ، الحرائق والسرقات والمذابح . وحاول الباشا
أن يضع حداً لتعدي هؤلاء المجانين ولكن في غير طائل ، ولا
غرو أن كان الباشا مسؤولاً عن ذلك ، فهو الذي دفعهم أول
الأمر إلى التمادي في ذلك ، حين أعلن لهم عن مكافأته لكل من
يأتي بأذان الشايقية مصلة . فإذا كان بعض الأتراك قد دفعتهم
مشاعر انسانية ، فوهبوا الحياة لأحد من هؤلاء التاعسين العائري
الحظ ، فلم تبلغ بهم الأريحية قط إلى الحد الذي جعلهم يدعون
الأذنين ملكاً لصاحبها . فقد سمعت رجلاً يونانياً ، كان طبيب
الباشا ، يفتخر بأنه أهدى إلى أحد الجنود أذني فتاة كان قد
وجدها مختبئة في حقل من الذرة ، ويعلن أنه أبقى على حياتها
لأنه شعر نحوها بعاطفة ، وأنه ما كان يشعر بتل هذه العاطفة
إزاء النساء الأخر اللائي يكبرنها سنأ ، ولذلك كان يذبحهن
دون تردد ، .

ويؤيد جيوفاني فيناتي^(١) الذي صحب الحملة ، مارواه كابو

(١) جندي ايطالي التحق بالجيش التركي وكان بين المستشارين
الذين استعان بهم الباشا التركي في تنظيم جيشه . وكان في حاشية ابراهيم
باشا حين زار سنار وفازوغلي ١٨٢١ - ١٨٢٢ ، وكان يتكلم العربية
بطلاقة ، واعتنق الاسلام وسى نفسه الحاج محمد (المترجم) .

من ملاحظاته ، تأييداً كاملاً .

إن الغيظ الذي ملأ نفوس الجنود الأتراك ، لما وجدوه من أعدائهم من المقاومة في شجاعة وبسالة ، ولتعطشهم إلى التخریب ، وطمعهم في المكافأة ، قد ساقهم إلى الغلو المفرز في التعدي وانتهاك الحرمات .

لذلك لاغربة في أن لا يقنعوا بانتصار واحد ، وان يتبادوا ، وهم يحسون بروح معنوية عالية ، في النيل من خصومهم بكل الوسائل الممكنة . وكانت كل الدلائل تنطق في وضوح وجلاء بهذه الحقيقة . يقول كايو : « فإن نصف الاهالي الذين التقينا بهم ، وكثير منهم من النساء ، كانوا محرومين إما من إحدى الأذنين أو من كليهما ، وكان آخرون منهم قد قطعت أطرافهم . أضف إلى ذلك أننا التقينا في طريقنا بعظام وجثث وزرائب كانت طعمة للنيران ، . فالواقع أن الاضطهاد الذي حدث ، كان يقصد فيما يبدو إلى الابداء والافناء . فالمنطقة كلها قد خربت ، وبذلك استحال - في وقتها على الأقل - إلى اذعان مكتب عابس .

فبعد موقعة كورتي خضع واحد أو اثنان من صغار المشايخ الذين حكموا على الضفة اليسرى من النهر ، أما سائر الشايقة وجيوشهم فقد عبروا النهر بزعامة الملك شاؤس واجتمعوا عند

جبل دجر حيث قرروا القيام بمحاولة عنيفة في سبيل الحرية . قام الجيش التركي ، مصحوباً بأسطول يتألف من حوالي ١٥٠ سفينة ، فعبر إلى الضفة اليمنى من كورتي وتقدم تجاه جبل دجر . وكان ذلك في الأسبوع الأول من ديسمبر سنة ١٨٢٠ .

واصطفت جنود شاؤس على منحدرات التل ، تحميم قصور شاؤس وتحصيناته ، التي وصفها شاهد عيان بأنها كانت قلقي ظلالاً مظلمة على جانب التل .

كان الموقع الذي اختاره شاؤس مناسباً إلى أقصى حد ، ولو لم يكن هنالك فارق بين الجيشين في نوع الأسلحة المستخدمة ، لكان من الجائز أن يضمن هذا الموقع لجنود شاؤس نصراً محققاً .

ولكن المجموع من سكان القرى الذين ساقهم شاؤس إلى الميدان أو أغرام بالاشتراك في الحرب ، لم يكونوا يملكون إلا الأسلحة والرماح والدروع والسيوف ذوات الحدين . وكانوا في مقدمة الجيش قد تصدوا لرصاص الأتراك يتلقونه ويستنزفونه ، دون أن يقدموا على أية مقاومة إيجابية في لحظة الهجوم .

أقام الباشا جيشه في مواجهة الأعداء ، ووضع القسم الأكبر من خيالاته قبالة الأرض المكشوفة بين الجبل والنهر ، ودفع بدفعيته قليلاً إلى الامام .

واندفع الاهالي المحاربون الى الامام وقد رفعوا أصواتهم

بصيحات عالية ، ولوحوا برماحهم ، وألقى المشاة بأنفسهم على المدفع ، وما كان في أيديهم سوى الاسلحة التي أثمرنا اليها ، فنُسفوا نفساً .

يقول انجليش ، أحد الضباط الامريكين ، وكان قد حارب في المدفعية التركية : « كانت الشجاعة المستميتة التي انصف بها هؤلاء القرويون التعساء ، تبعث على الدهش . فقد تقدموا أكثر من مرة تجاه فوهات المدافع ، وجرحوا بعض رجال المدفعية وهم يقومون بحشوها بالرصاص . ولكنهم بعد أن أحسوا بآثار قليل من الطلقات النارية ، التي مزقت الحيل والناس أشلاء ، هربوا مذعورين ، تاركين عساكر المشاة وقد داسوهم ، وأخذ فرساننا يقذفونهم بالسيوف يصوبونها إلى أسفل حتى قتلوا مئات كثيرة منهم وهم يعمون بالفرار .

« وحين أقول : يصوبونها إلى أسفل ، فذلك لان السيف الذي استعمله خيالتنا لم يكن يجدي فتيلاً ، فقد كان هؤلاء الاعداء من الحذق والمهارة في استخدام تروسهم بحيث استطاعوا أن يتفادوا كل ضربة صوّبت نحوها .

« وقد شاهدت في ميدان القتال تروساً كثيرة فيها مالا يقل عن عشر فلول أو خمسة عشر من فلول السيوف كل منها ملقى على جذّة الميت ، الذي حملها ، والذي كان من الواضح أنه قتل برصاصتين أو ثلاث نفذت إلى جسمه .

«وقد أخبرني الجنود أنهم كانوا ، في كثير من الاحيان ، يضطرون إلى افراغ قرايبتهم (سلاحهم الناري) ومسدساتهم في جسد رجل واحد قبل أن يسقط على الارض صريعا .

ويحكى وادنجتون قصة رجل من الشايقية ، أصابته خمس رصاصات ومع ذلك ظل يقاتل ، وبصيح في وجوهم قائلا ان في مقدورهم أن يطلقوا النار ولكن ليس في مقدورهم أن يصيبوه بأذى . إلى أن تلقى جرحه المميت .

وقد عُزي هذا الاستبسال الحارق ، والحمة العسكرية إلى أن فقّرّا (١) الشايقية قد أكدوا لجيوشهم أن سلاح الغزاة لن يؤثر في أجسامهم . وكان هؤلاء الفقرا قد زودوا المحاربين بأكوام من التراب المبارك لكي ينثروه على أجسامهم فيحدث الاثر المطلوب . ومن ثم تقدموا نحو صفوف أعدائهم الاتراك ، وهم إلى حالة المتهلل الراقص أقرب من حالة المحارب المقاتل ، تبدو على وجوهم سياء الثقة المطلقة بالنفس والسخرية المفرطة بالاعداء . ولكنهم أدرکوا ، بعد أن دارت رحى الحرب ، أن تلك التعاويذ التي أوصاهم مشايخهم بأن يعتمدوا عليها وأن يثقوا فيها . قد خدعتهم خدعة كانت السبب في شقايم وويلاتهم . فاضمروا

(١) فقرا جمع غير قياسي مفردة فكى (أي فقيه) ومن معانيها في اللهجة السودانية المتعبد أو الزاهد وصاحب التعاويذ والتهايم (المترجم) .

لفقرائهم شراً ، وعقدوا النية على أن ينتقموا منهم انتقاماً مريعاً .
فما كادت تنتهي المرحلة الاولى من المعركة ، حتى قبضوا على
أسرة الفقرا كلها ، وهي أسرة الدويحية ، وقتلهم عن آخرهم ،
بل خربوا القرية التي كانت هذه الاسرة تقيم فيها ، وهي قرية
شيبه ، بالقرب من مروى .

كانت نتيجة هذه المعركة وبالا على الشايقية ، فانكسرت
شوكتهم وفنيت الكتلة الساحقة من عساكر المشاة ، أما الحيلة
فقد لاذوا بالفرار تحت امرة شاؤس ، ولبثوا إلى تلال عمري .

وواصل الجيش التركي مطاردة الاعداء إلى أن بلغوا جبل
برقل ، وهم ينهبون ويحرقون ويقتلون كل ما صادفوه في
طريقهم ، ويخربون البلاد بعيدا وفسيحها . وكان هذا
التخريب الواسع النطاق مخيفاً مفزعاً . حتى أن الرجال
الذين طعنوا في السن ، والصبية الذين كانوا يديرون سواقيم في
سلام وهدوء ، لم يفلتوا من أيديهم ، بل مزقوا أجسامهم في
حقولهم ، وتركوا مع جثث حيوانهم ، تبلى وتنتن في وسط
مزارعهم المهجورة .

وقد مر " وادنجتون خلال هذه الديار ، بعد الذي أحدثه
الجيش فيها ، بأسابيع قليلة ، ورسم لنا صورة بشعة مفرقة لما
أصابها من الحراب والدمار .

وبعد انتهاء الموقعة بوقت قصير ، أعلن الملك صير خضوعه
للجيش التركي ، ويعزى هذا إلى السبب التالي :

بعد أن دحر الاتراك الشايقية عند جبل دجر ، وقضوا على
استحكاماتهم ، حاولت بنت الملك صير ، واسمها « صافية » ،
أن تشق لنفسها سبيل الهرب من أحد قصور والدها ، فوقعت
أسيرة في أيدي فرقة البدو التابعين لجيش الباشا التركي .

ومرعان ما أحضروها بين يدي الباشا ، أملاً في أن يأمر
لهم بمكافأة مادية ، فقد كانت « صافية » ، فيما يروى على جانب
عظيم من الجمال . ولكن الباشا لم يستغل ما يملكه من حقوق
الغزو ، فقد أمر بها أن تلبس فاخر الثياب ، ومنحها كثيراً
من الجواهر والحلي ، وحملها على جمل ، ووكل بها حرساً من
رجال الذين يثق بهم ، وردّها إلى أبيها مكربة .

ولكن أباه حين رآها مزدانة بحلية تركية ، ومرتدية ثياباً
تركية فاخرة ، خطر له أنها أخذت ثمن خيانتها ، فرفض أن
يستردها . ولكنه لم يلبث أن عرف الحقيقة ، فتلقاها بالترحيب ،
وقرر على الفور التسليم لاسماعيل ، لانه ، كما يقول ، أصبح
لا يستطيع أن يحارب رجلاً حفظ عفاف ابنته .

وقد أعلن التسليم مع الملك صير عدد من الامراء الصغار ،
وهؤلاء سمح لهم بالعودة إلى قراهم .

أما الملك شاؤس ، وكان جندياً صارماً عنيداً ، فقد رفض أن يسلم وطلب الهدنة ، وعاد بجيوشه إلى قرب شندي .

وعسكر اسماعيل بجيشه في قرية كريئة في خلال شهري ديسمبر ويناير ، حتى يمنح جيشه شيئاً من الراحة ، وبعد العدة من المؤن ووسائل النقل استعداداً لحملة التي عزم على تسييرها إلى بربر وسنار . وأخيراً ، في الحادي والعشرين من شهر فبراير سنة ١٨٢١ ، بعد أن جهز جيشه واستكمل معداته ، عبر إلى الضفة اليسرى من النهر ، واستبقى قوة تتألف من ٣٠٠ جندي من المغاربة لحراسة المؤن والاسطول الذي كان يتألف من ١٢٠ سفينة ، واتجه ببقية جيشه إلى الشرق . فسار من نوري إلى كيربكان ، ومنها مضى عبر الصحراء من طريق جوره ووادي دم التور ، إلى الباقيرو الواقعة على النيل في اقليم الرباطاب (وهي الآن تابعة لاقليم بربر) .

اتجه الباشا من الباقيرو إلى الجنوب وسار بمحاذاة الضفة اليسرى من النيل حتى كان في مواجهة شندي ، دون أن تصادفه أية مقاومة ، وفي طريقه أعلن التسليم له الملك نصر الدين ملك بربر ، والملك عمر ملك شندي ، وجميع الزعماء الصغار التابعين لاقليم بربر .

وفي شندي وجد الملك شاؤس أن الاستمرار في مقاومة

الغازي أمر لا طائل تحته ، فعبر النهر في الخامس عشر من شهر
مايو ١٨٢١ ، وأعلن خضوعه للباشا هو ومائتان من جنوده .
فلما قبل الباشا هذا التسليم ، تقدم شاؤس اليه راجياً ألا
يجرمه هو ورجاله من أسلحتهم وخيلهم . وأن يأذن لهم في أن
يظلوا على جيبيلتهم التي ولدوا بها ونشأوا عليها ، جنوداً محاربين ،
وأن يسمع لهم بأن ينخرطوا في سلك الجندية التركية وأن
يقاتلوا تحت لوائه .

وقدر الباشا بسالة هؤلاء الجنود التي قاوموا بها جيشه ،
فوافقه على طلبه . ومنذ ذلك الوقت انضم إلى جيش الاتراك
فرقة تتألف من ١٤٠ شايقيا بقيادة الملك شاؤس العدلاني الذي
عين « بلوك باشي » (١) .

وقد أثبتت هذه الفرقة الصغيرة دليل الجدارة ، وقدمت عن
نفسها فكرة طيبة في الحروب التي شنها اسماعيل في سنار وكسلا .
ولما رجع اسماعيل من حملاته في الجنوب وجد العبدلاب قد
قاموا بثورة في أثناء غيابه ، فانتزعت أراضيهم منهم ، ومنع
الشايقية هذه الأراضي بصفة دائمة على شريطة أن يظلوا في
الخدمة العسكرية .

وبهذه الحصة من الأراضي ، استولى الملك شاؤس وقبيلته

(١) أي قائد فرقة من (الباشي بوزق) وم الفرسان
غير النظاميين .

العدلاناب على مدينة حلفاية التي كانت من قبل ملكا للعدلاب .
وفي حلفاية الى الآن ، تقطن ذرية شاؤس وقبيلته . ومنذ
ذلك الحين يبدأ تاريخ استيطان طائفة كبيرة من الشايقة في
مديرية الخرطوم ، والسواراب في « حجر العسل » ، وفي
« مديسبه » ، ووادي بشاره ، والكادنقاب في « أبو دوم »
و « كوداب » و « ود البصل » .

وهنا ينتهي تاريخ الشايقة بحسبانهم شعباله كيانه ، واندرج
في تاريخ الحكم المصري في السودان . واستمرت هذه القبيلة
من المحاريين الباسلين ، الذين أثبت الأتراك نشاطهم الحربي حين
كانوا أعداء ، وحين كانوا حلفاء ، تقدم دلائل الولاء للحكومة
منذ ذلك اليوم الذي أعلن فيه الأمير المحارب شاؤس خضوعه
في شندي ، إلى ذلك اليوم المحتوم من يناير ١٨٨٥ حين
سقطت الخرطوم وزال الحكم المصري - بصفة مؤقتة -
عن السودان (١) .

(١) هذا تعبير غير دقيق ، فيه إيهام ومغالطة . فالذين حكموا
السودان في تلك العهود لم يكونوا من المصريين ، ولكنهم كانوا من
الأتراك . ولقد حكم الأتراك مصر كما حكموا السودان . وعانى الشعب
المصري منهم كما عانى الشعب السوداني سواء بسواء .
والملاحظ أن مؤلف هذا الكتاب يناقض نفسه مناقضة سافرة .
ففي صفحاته السابقة ، كان حديثه منحصراً في الأتراك والكشاف والماليك
وما صنعوه في السودان . ثم لوى ها هنا زمام القول فجأة ، لهوى =

الملحق الأول

فيا يلي جدول مختصر لقبائل الجعليين في السودان ، وهو يبين العلاقات بين الشايقة والقبائل التي تمت اليهم بصلة القرى .

هذه القبائل تسمى « جعلية » نسبة إلى جدهم « ابراهيم جعل » وهو من سلالة عبد الله بن عباس الهاشمي . وقد لقب

= في نفسه ، فوصف حكم هؤلاء الأتراك والكشاف بأنه « حكم مصري » 11 ولم يعد أحد اليوم ، من سكان هذا الوادي ، يحفل أن الحكم في ذلك العهد كان قوامه الأتراك ، وأن الذين دبروا هذا الغزو كانوا م الأتراك .

وإذا كان للشعب المصري نصيب في تاريخ السودان الحديث ، فهو نصيب الأخوة التي لا يمكن أن تختار أسلوب العنف ، ولا يمكن أن تلجأ إلى القوة والسيطرة على الشعب السوداني الشقيق .

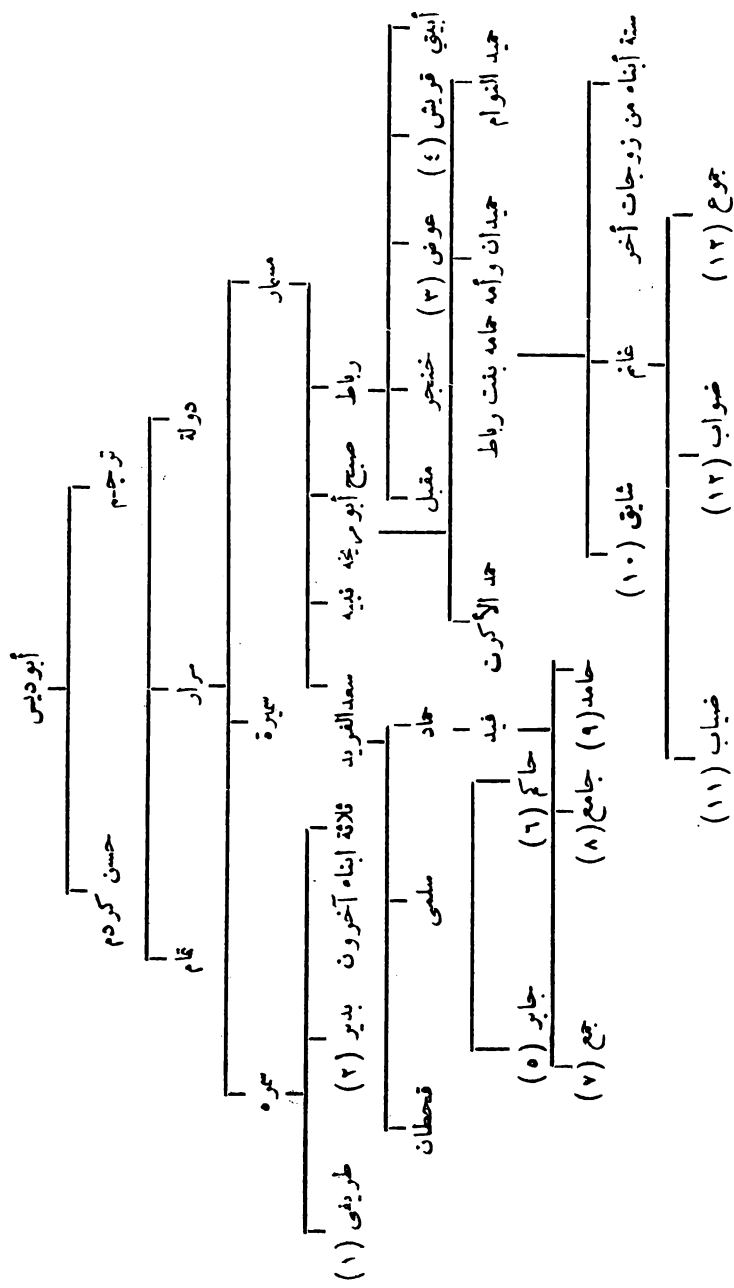
لقد كان للشعب المصري آثار سلمية في تاريخ السودان وحضارته من علمية واجتماعية ودينية ولم تكن هذه الآثار قاصرة على العهد التركي وحده بل كانت في جميع العهود التاريخية على سواء . أما الحملات العسكرية التي شنها الأتراك أو شنها الانجليز فبما بعد فان الشعب المصري بريء منها تماماً .

(المترجم)

ابراهيم يجعل لأنه كان رجلاً كريماً مضافاً حتى اشتهر بذلك^(١) .
أما « أبو ديس » الذي نجده على رأس القائمة في هذا الجدول
فهو ابن قضاة بن عبد الله حرقان بن مسروق بن أحمد اليميني
ابن ابراهيم جعل .

ومن الملاحظ أن لفظ « جعليين » لم يطلق في بادئ الأمر
على قبيلة بعينا ، بل هو اصطلاح جامع لعدد كبير من القبائل
لأنكاد تتصل بصلات وثيقة من القربى ، كما أطلق بصفة
رئيسية على الذين سكنوا دنقلة وبربر والحروط وأقاليم النيل
الأبيض . أما اليوم فإن اللفظ بوجه عام يستعمل للدلالة على
ذرية « ضوَاب » .

(١) تفسير هذا الاسم هو أن ابراهيم كان يقول للاهالي الذين
ينضون تحت لوائه (جعلناكم منا) أي أنكم أصبحتم منا أو جزءاً
منا لكم ما لنا وعليكم ما علينا . فلما كثر تزديده لهذه العبارة اشتهرت
عنه ، فلزمت اسمه (المترجم) .



تعليقات على شجرة النسب الواردة في الجدول :

- ١ - هو جد قبيلة الطريفية .
- ٢ - هو جد قبيلة القريشاب .
- ٣ - هو جد قبيلة العوضية .
- ٤ - هو جد قبيلة القريشاب .
- ٥ - هو جد قبائل الجوابرة والجواب .
- ٦ - هو جد قبيلة الحاكاب .
- ٧ - هو جد قبيلة الجمع .
- ٨ - هو جد قبيلة الجوامعة .
- ٩ - هو جد قبيلتي الحمد والاحامد .
- ١٠ - هو جد قبيلة الشايقية .
- ١١ - هو جد قبائل الرباطاب والميرقاب والناصراب وعبد الرحماناب والفاضلاب والسريجاب النخ ...
- ١٢ - هو جد قبائل الشاعديناب والمكابراب والزيداب والكتياب وقبائل أخرى كثيرة لا تحمل اسم (الجعليين) .
- ١٣ - هو جد قبيلتي الجميعاب والجموعية .

الملحق الثاني^(١)

ابناء سابى وفروع السابىة

ليس في القوائم التي فحصتها قائمتان تتفقان في نسب أولاد سابى . ومع ذلك فهي تتفق من حيث عدد الأبناء ، وهو اثنا عشر . وتتفق كذلك في أسماء ثمانية منهم وهم : كادنقا ، أم سالم ، نافع ، شلوف ، حواش ، عون ، سوار ، مريس .

وامم الابن التاسع هو عمارة أو قريش .
وأسماء الثلاثة الباقية تختلف على النحو الآتي :

(أ) قائمة الكابتين جاكسون تجعل الأسماء باعوض ، مرس ، ثمرنكو .

(ب) رواية العمدة محمد علي بليلو عمدة السواراب ، أنهم عدلان (أو صلاح) ومرزوق وحامد .

(ج) رواية الشينغ محمد صالح أبو دوم من قبيلة الكادنقاب تجعلهم مرزوق ، صلاح ، ثيربيل .

كان كادنقا هو الابن الأكبر ، ولكن الروايات تختلف بالنسبة

(١) أني مدين في المواد التي استقيتها في هذا الملحق للكابتين أ . س .

جاكسون .

الى نظام تتابع الأبناء الباقين ، ولا أحسب أن الموضوع من الأهمية بحيث يستحق منا أن نفحص الروايات المتباينة التي ذكرت في القوائم المختلفة .

١ - كان لكادنقا ، جد الكادنقاب ، ذرية قوامها ما يلي :
(أ) صالح ، جد الحنيكاب ، وقد أقام في أوسلى ، حزيمة ، مساوي ، القرير ، عمري (مديرية دنقلة) ، شندي (مديرية بربر) ، العيلفون (اقليم الخرطوم) .
ويتفرع الحنيكاب من المحموداب ، والناصراب ، والقوتاب والشريشاب ، والحسناب والشلليل .

(ب) صلاح (١) جد الصلاحاب الذين يسكنون في زومة ودبية ومساوي (مديرية دنقلة) ، وقوز البساير (اقليم شندي بمديرية بربر) (٢) وجد الاسوماب الذين يقيمون في قبلي (مديرية الخرطوم) . (٣) وجد العدلاناب الذين يستوطنون حلفاية الملوك وأبو حليلة وقبلي (مديرية الخرطوم) .

ويتفرع العدلاناب الى مروى وكجبي وأولاد علي والمناوراب .

(ج) حامد جد الحامداب الذين يسكنون في حامداب (مديرية دنقلة) وفي كردوفان حيث يعيشون بدوارحلا .
(د) عبد الدائم (ويعرف أيضاً بأمم ثلبن) وهو جد التلبناب الذين يقيمون في جزيرة تلبناب (مديرية دنقلة)

(هـ) جورم جد الجورماب الذين يعيشون في تنقيسي وبرقل

(مديرية دنقلة) وود البصل (مديرية الخرطوم)

(و) زمام جد الزماماب ، وهم يقيمون في مروي وبرقل

وتنسي

(ز) حسين جد الكروساب ، ويقمون في الكرو (مديرية

دنقلة) .

(ح) رعيم جد الرغياب ، ويقمون في ود البصل (مديرية

الخرطوم) وكذلك في مديرية دنقلة .

(ط) كوده جد الكوداب ، ويسكنون في كوداب ، وأبى

دوم ، وقوز نفيسه (مديرية الخرطوم) .

(ي) مرزوق (ويروى كذلك انه ابن سابق) وهو جد

المرزوقاب الذين يقيمون في تنقيسي وكرو (مديرية دنقلة) .

(ك) شرنكو جد الشرنكاب والغرياب الذين يقيمون في

برقل (مديرية دنقلة) .

(ل) عيسى جد العيسياب الذين يعيشون في نوري والقرير

(مديرية دنقلة) .

وهناك ولدان آخران من أمة سودانية أحدهما

(فرج الله) جد الفرجلاب (ويعرفون كذلك باسم الكراكرة)

وهم يقيمون في الكرو وزومه وبرقل وجزيرة التلبناب (مديرية

دنقلة () . والولد الثاني (فرج) جد الفرجاب الذين يسكنون في كرو (بمديرية دنقلة) .

٢ - أم سالم جدة قبيلة أم سالم التي تقيم في مديرتي النيل الأبيض وبربر ، وجدة يعقوباب الذين يسكنون في مديرية سنار . وذريتها من الذكور هم :

(أ) بادي جد الباداباب الذين يقيمون في زومه (بمديرية دنقلة) .
(ب) كلشوم جد الكلاشم الذين يقيمون في زومه (بمديرية دنقلة) .

(ج) جاده جد الجداب الذين يقيمون في عمري (بمديرية دنقلة) .

٣ - نافع جد النافعاب الذين يقيمون في مديرية دنقلة وذريته من الذكور هم :

(أ) غاسين جد الغاسيناب ويسكنون في الجريف والدويم بمديرية دنقلة .

(ب) ضيف الله جد الضيفلاب ويسكنون في الجبير (بمديرية دنقلة) .

٤ - شلوف جد الشلوفاب ويقيمون في مديرية دنقلة والقضارف بمديرية كسلا ، وذريته من الذكور هم :

(أ) حاج محمد جد الحاج محمداب ، ويقيمون في الجريف (بمديرية دنقلة) .

(ب) علي جد العلياب الذين يقيمون في القرير و كورتى
(بمديرية دنقلة) .

(ح) عمر الجار ، جد البادياب الذين يقيمون في مَجَل
(بمديرية دنقلة) .

٥ - حواش جد الحواشاب و يقيمون في أبي دوم و تنقسي
(بمديرية دنقلة) ، و كوداب و كدرو (بمديرية الخرطوم) ،
و بساير (بمديرية بربر) و ذريته من الذكور هم :

(أ) مجن جد المجناب في تنقسي و أبي دوم (بمديرية دنقلة) .

(ب) عقرب جد العقرباب في أبي دوم (بمديرية دنقلة) .

٦ - عون جد العونية الذين يقيمون في فلاس ، و كورتى
و البرصة و جزيرة جينتي (بمديرية دنقلة) ، و اقليم شندي
(بمديرية بربر) . و ذريته من الذكور هم :

(أ) الغرباوي جد العونية في جينتي و البرصة (بمديرية دنقلة) .

(ب) زين الدين جد الحسناب في اقليم شندي (بمديرية بربر)

(ج) دوانه جد الدواناب في اقليم شندي (بمديرية بربر) .

٧ - سوار جد السواراب ، أقوى فروع الشايقة وأكثرها
عددا ، وهم يسكنون في القرير و حزيمة و الأراك و أواسلي
و كوري (بمديرية دنقلة) ، و صحراء بيوضة ، و حجر العسل ،
و مدبسيه و وادي بشاره (بمديرية الخرطوم) و واد حامد
و الزليتاب و كبوشية (بمديرية بربر) . و أولاده ستة هم :

وصيف وجادات، وهما من زوجته الأولى ، وحمد الله وحسن
تمليك من زوجته الثانية ، وعابد وممر من زوجته الثالثة .

(أ) وصيف جد الكافونقا^(١) والزليتاب والزرافنه من
اقليم شندى (بمديرية بربر) وصحراء بيوضة .

(ب) جادات جد المشندل في صحراء بيوضة والقرير
(بمديرية دنقلة) وحجر العسل ومديسيه ووادي بشاره
(بمديرية الخرطوم) .

(ج) حمد الله جد الحمدلاب في القرير والكُرى (بمديرية
دنقلة) واقليم شندى (بمديرية بربر) والازيرقاب بمديرية
الخرطوم .

(د) حسن تملك جد التملك في الأراك وكورى وموره
وتكر (بمديرية دنقلة) .

(هـ) عابد جد العايداب من القرير (بمديرية دنقلة)
ووادي بشاره (مديرية الخرطوم) وجد العطيتلاب في وادي
بشاره (مديرية الخرطوم) .

(و) ممر جد العنيناب في حزيمة وأبي دوم كشاي ، وأبي
كليوات (بمديرية دنقلة) وحجر العسل (بمديرية الخرطوم) .
٨ - مريس جد المريساب في مديرية بربر وفي أبي دوم

(١) يعتقد بعض الشايبة أن الكافونقا م مكان دنقلا القديم .

(بمديرية دنقله) وله ولد واحد وهو عليت جد العليتاب
في تكر .

٩ - قريش جد القريشاب في اقليم سندي بمديرية بوير ويقال
ان اولاده ثلاثة :

(أ) أبو دود جد الأباديد في كريمة ومروى بمديرية دنقله .

(ب) صالح جد الصالحاب في كريمة ومروى بمديرية دنقله .

(ج) أبو ناب جد الأبوناب في كريمة ومروى بمديرية دنقله .

١٠ - عامر جد العامراب في كريمة والكُرمى وعامري

(بمديرية دنقله) . ويروي البعض أنه ابن قريش ، ويروي
آخرون أنه ابن عمارة ابن شايق .

١١ - باعوض جد الباعوضاب ويعيشون في عمري وبرقل

بمديرية دنقله ، ويقال أيضاً أنه ابن شايق وان ذريته من
الذكور هم :

(أ) عجيب جد العجيباب في عمري وبرقل (بمديرية

دنقله) .

(ب) علي جد القططية في برقل (بمديرية دنقله) .

(ج) محمد خير جد الأمئاب في الركابية (بمديرية دنقله) .

١٢ - مرس جد المرساب في موره والأراك بمديرية دنقله ،

ويروى أيضاً أنه ابن شايق وأن ذريته من الذكور هم :

(أ) أبو الحسين جد الحسناب في الأراك .

(ب) رحمه جد الرحاب في الأراك .

١٣ - ثرنكو ويروى أيضاً أنه ابن شايق وانه توفي ولم يعقب .

وبعد السواراب والسكادنقاب ، بلا جدال ، أكثر قبائل الشايقية عدداً وأعظمها أهمية . وكان العونية فيما سبق قبيلة قوية ، ولكن منازعاتها المستمرة مع القبيلتين السابقتين ، أدت الى تشتتها ونقص عددها وثروتها . والسبب في تلك المنازعات هو أن شايق - فيما يروى - سافر مرة الى دارفور وقدم هدية من الحبل للسلطان تنقار سلطان جبل حريس ، فسر بها السلطان كثيراً ، وأكرم وفادة شايق وعامله في بلاطه معاملة الملوك لمدة عام وزوجه من إحدى بناته .

وولد شايق من ابنة السلطان ولداً سمى سوارا . ولما عزم شايق على الرحيل من بلاط السلطان ، ترك زوجته وولده في كنف السلطان ، ووعد به بأنه سيعود اليها ليأخذها معه الى دنقله حالما يهيء لها مكاناً فيها . ورجع شايق الى دنقله ولكنه لم يستطع العودة الى دارفور فلما حضرته الوفاة ، دعا ابنه الأكبر ، وأخذ منه عهداً بأن يذهب إلى دارفور ويبحث عن سوار وأمه ويحضرهما الى دنقله . وسافر كادنقا الى دارفور ، فوجد السلطان « تنقار » قد مات ، وكان خليفته على السلطنة معادياً للشايقية ، فلم يتمكن من البحث عنها علانية . وحدث ذات يوم ، بينما كان كادنقا جالساً في سوق قرية مجاورة لجبل حريس وكان

يا كل بلحا ، أن احتشد جمع من الصبية حوله وأخذوا يتطلعون اليه . فجعل يتسلى بالقاء حبات من البلح الى الصبية ومراقبتهم وهم يتدافعون بالمناكب ويتخاطفون البلح . ولاحظ كادنقا أن صبياً منهم قد وقف بعيداً لا يصنع صنيعهم ، فدعاه وسأله لماذا لم يشارك رفاقه في هذا اللهو . فأجابه الصبي بأنه غريب عنهم ، ولهذا لم يدخل معهم في ذلك اللهو . فاهتم كادنقا بأمر هذا الصبي وجعل يسأله حتى استيقن انه سوار . وحينئذ أخذ يعد العدة مرا لا بلاغ أمه الخبر ، ثم السفر بهما الى دنقلا .

ولما كان كادنقا قد أظهر ازاء هذا الصبي رعاية وعطفا ، فقد أوغر هذا التصرف قلب بقية أبناء شايق ، عون وحواش فتآمرا عليه ، واختطفوا الصبي وأمه وباعاهما بيع الرقيق الى قبيلة عربية تقطن بجوار كورسكو .

فلم يكد كادنقا يسمع هذا الخبر ، حتى اقتفى آثار القبيلة التي استوت سوارا وأمه ، واشترهما منها وعاد بها .

أما الصبي سوار فهو جد السواراب ، ولهذا السبب نجم نزاع مرير بين السواراب والعونية ، واستمر الى العصور الحديثة وقد قامى العونية من جراء هذه المنازعات الشيء الكثير .

الملحق الثالث

« دفنة في سنة ١٦٩٨ كما وصفها م . بونسيه »

نقل النبذة التالية من التمهيد الذي قدمته الترجمة الانكليزية لرحلات بونسيه ، وهي مطبوعة في لندن في سنة ١٧٠٩ .
« مسيو بونسيه طبيب ماهر عاش في القاهرة ، عاصمة مصر ، ومن الشواهد الواضحة الدالة على قدرته ومهارته في فنه أن امبراطور الحبشة ، حين أصابه مرض عضال كان يهدد حياته ، قد اقتنع بأنه أمر طبيب يمكن أن يتولى علاجه » .

سافر بونسيه من القاهرة في ١٠ يونيه ١٦٩٨ ، يصحبه « حاج علي » أحد ضباط امبراطور الحبشة ، والأب تشارلز فرانسيس اكسافيريوس دي بريفيدنت أحد المبشرين اليسوعيين ، وقد سافر من طريق منفلوط ، وابناه ، وحلاوى ، وشيب ، وصليحة .

يقول بونسيه نفسه : « في السادس والعشرين من اكتوبر ١٦٩٨ وصلنا الى « مشو » وهي ميناء طبية فسيحة تقع على الضفة الغربية من بحر النيل . وفي هذه البقعة ، يؤلف النهر

جزيرتين^(١) بمائتين بالنخيل وأشجار السنمكي والحنظل . وتقع مشو في ولاية الفونج ، ومشو هذه هي المكان الوحيد المعمور بين هذه البقعة وحلاوى . وولاية الفونج هذه تابعة للملك سنار وهي أول بلاد البرابرة . ولما عرف الارباب ، وهو لقب حاكم هذه الولاية ، أن امبراطور الحبشة قد أرسل في طلبنا دعانا للذهاب الى أرجوس^(٢) حيث يقيم . وتشرف هذه القصة في مواجهة مشو على الجانب الآخر من النيل ، وقد انتقلنا اليها في قارب . وقلقنا الحاكم بترحاب بالغ ، وأكرم وفادتنا يومين كانا راحة ومتعة لنا بعد أن كنا قد قاسينا متاعب جمة في رحلتنا . وفي أرجوس أيضاً يسكن شيخ الجبابة وهو ابن ملك دنقله .

ولا يظهر هذا الشيخ أمام الناس إلا وهو يمتط ظهر جواده ، وقد تغطى الجواد بمائتين من الاجراس النحاسية الصغيرة التي كانت تحدث مع الحركة صلصلة شديدة ، ويلحق به اثنا عشر فارساً ومائتا جندي مسلحين بالحراب والسيوف . وقد زارنا في خيامنا ، حيث قدمت له القهوة وأدى اليه الناس العوائد ، وهي عبارة عن صابون وأقمشة من الكتان . وشرفنا بدعوتنا ، في

(١) هما أرتيهاشا وبولينارتي .

(٢) هي أرجو ساب وفيها يقيم نسل أمراء أرجو إلى يومنا هذا .

اليوم التالي ، لتناول العشاء غنّده . فذهبنا في الموعد المضروب .
فرأينا قصرأ فسيح الارعاء مبنياً بالآجر . له جدران عالية
جداً ، تحديق به ، على مسافات معينة ، قلاع شائعة خالية من
المنافذ ، ذلك أن هذه البلاد لا تستخدم المدافع وإنما تستخدم البنادق .

بعد أن قضينا ثمانية أيام في مشو غادرناها في الرابع من
نوفمبر ، ووصلنا في الثالث عشر من الشهر نفسه إلى دنقلة^(١) .
وكل البلاد التي مررنا بها في طريقنا إلى دنقلة ، بل التي تقع
كذلك على طول الطريق إلى سنار ، هي بلاد ممتعة للغاية ،
ولكن لا يتجاوز اتساعها ثلاثة أميال (فرسخ) . أما ما وراء
هذه المنطقة فصحارى موحشة . وينحدر النيل في خلال هذا
السهل الممتع ، له ضفاف عاليات بارزات . ومن ثم لم يكن
الفيضان في هذه التربة هو الذي يجلب الحصب والناء ، كما يحدث
في مصر ، وإنما هو الصناعة والأعمال التي يقوم بها الأهالي . ولما
كانت الأمطار تهطل نادراً في المنطقة ، فقد عني الأهالي بالسواقي
التي تديرها الثيران^(٢) ، لاستخراج مقادير هائلة من الماء تجري
في قنوات واسعة في خلال أراضيهم ، يصنعونها لهذا الغرض .

(١) أي دنقلة العجوز .

(٢) كثيراً ما سمعت في دنقلة ، أن السواقي أدخلها الأتراك هناك
في أيام الغزو (١٨٢١) ولكن هذا النص يدل على مدى خطأ
هذه الرواية .

ثم يأخذون منها حاجتهم حين توافي الفرصة لري أراضيهم . ولولا هذه الطريقة ، لاستعالت أراضيهم قاحلة جرداء .

« والفضة ، في ميدان التجارة ، لا قيمة لها في هذه البلاد . فالمعاملة قائمة على تبادل السلع كما كانت الحال في العصور البدائية . فالمسافرون يقايضون بالفلفل والينسون وحب البركة والقرنفل والفراء المصبوغة بالزرقاء والعطور الفرنسية والحلب المصري ونحو ذلك بما يحتاجون اليه . وهم لا يأكلون من الحبز إلا ما صنع من الذرة ويصنعون منها نوعاً من الجعة الخائفة لها طعم رديء للغاية^(١) . ولما كانت عرضة للفساد إذا طال بها الزمن ، اضطروا أن يصنعوها طازجة في كل ساعة . والرجل الذي يمتلك شيئاً من خبز الذرة وقرعة ملأى بهذا الشراب الكريه الذي يشربونه حتى يلعب برؤوسهم ، إنما يعد نفسه سعيداً يجلب لنفسه طرباً عظيماً . وبهذا الغذاء الضئيل ، يتمتع الناس هنا بصحة جيدة ، بل هم أكثر عافية وأشد قوة من الأوروبيين .

« وبيوتهم من الطين ، سطوحها واطئة مغطاة بقصب الذرة ، أما خيولهم فهي حسنة المنظر للغاية ، ومناسبة جداً للركوب . « وللخيل سُرج مرتفعة جداً في مقدمتها ومؤخرتها جميعاً ، وهي تعقب الحصان كثيراً ،

(١) المريسة وتسمى عند أهل دنقلة مرسبكي .

« وللشخصيات البارزة ، حامرو الرؤوس ، وشعرهم مجدول في هيئة حسنة . وكل ما يلبسونه يتألف من نوع من الثياب الرديئة لا أكمام له . وسيقانهم عارية ولا يلبسون في أقدامهم إلا نعالاً مجردة ومثبتة بأربطة .

« وعامة الناس يلفون أنفسهم بثوب من الكتان ، يرتدونه بمائة طريقة مختلفة ، والأطفال عراة غالباً .

« والناس جميعاً يمتلكون الحراب ويحملونها معهم دائماً . ولها في أطرافها سنان تشبه الصناير . وبعضها بمشق للغاية . والذين يحملون منهم السيوف يتكبرونها . والأيمان واللعنات شائعة جداً بين هؤلاء القوم الجاهلاء . وهم إلى ذلك قوم غاؤون ليس لديهم شيء من التواضع ولا المجاملة ولا التدين . وبالرغم من أنهم يعتقدون الاسلام في الوقت الحاضر ، فانهم لا يعرفون منه إلا مجرد مرامم شكلية يرددونها في كل مناسبة . وما يستدعي الامر حقاً ، وما هاج الدموع في عيني صديقي العزيز الاب بريفيدنت ، أن هذه البلاد منذ وقت غير قصير كانت بلاداً مسيحية ، وأنها لم تختف المسيحية إلا حاجتها إلى رجل كان من الغيرة والحماس بحيث يكرس نفسه للتبشير في تلك البلاد المهجورة ^(١) .

(١) لاجابة بنا إلى القول بأن (بونسيه) يتكلم بوجهة نظرة الخاصة . وهو ، كما لا يخفى ، طبيب مسيحي مبشر ينتمي إلى الطائفة اليسوعية .
(المترجم)

« وفي طريقنا عثرنا على عدد كبير من الصوامع والكنائس ،
الخربة نصف تخريب . وقد قمنا برحلات قصيرة من مشو إلى
دنقلة حتى ننعش نفوسنا بعد أن كابدنا تلك الرحلات الطوال التي
مررونا فيها خلال الصحاري .

« وقد نقص عدد سكان هذه البلاد بتأثير الوباء الذي وقع
منذ فترة لا تتجاوز سنتين .

« وكان هذا الوباء عنيفاً جداً في القاهرة في سنة ١٦٩٦
عندما كنت هناك ، حيث قدمت نفسي لخدمة المصابين ، وقد
أكدوا لي أن الناس كانوا يموتون يوماً حتى بلغ عدد الموتى
عشرة آلاف .

« وقد وقعت هذه الكارثة المفزعة في مصر العليا كلها وفي
بلاد البرابرة . حتى أننا وجدنا عدة مدن ، وعدداً كبيراً من
القرى خالية من السكان ، كما وجدنا مديريات شاسعة ، كانت
يوماً ما غنية خصبة ، قد أثلقت اتلافاً ، وصارت خراباً بلقعا^(١) .

« ولم تكد تلوح مدينة دنقلة أمام أعيننا ، حتى تركنا
قائد القافلة وبادر إلى استئذان الملك في أن يسمح له ولرفاقه
بالدخول في المدينة . فاذن عن طيب خاطر . وكنا حينئذ في
قرية تعد ضاحية لمدينة دنقلة ، فعبرنا النهر في قارب كبير

(١) قارن هذا بما ورد في الفصل الثاني في صفحاته الأولى .

أعده الأمير ليستخدمه العامة . وكل البضائع التي تنقل يؤخذ عنها رسوم ، أما المسافرون فلا يدفعون شيئاً . وتقع مدينة دنقلة على الضفة الشرقية من النيل ، فوق منحدر تل رملي مجذب . وبيوتها مبنية بناء رديئاً ، وطرقاتها شبه مهجورة ، معرضة للفيضان يأتيها من الجبل . وقصر الملك في وسط المدينة تماماً . وهو قصر كبير فسيح ، ولكن تحصيناته ضعيفة لا يبعد بها . وهو مبعث رهبة في نفوس العرب الذين هم سادة هذه المنطقة حيث منحت لهم الحرية في أن ترعى ماشيتهم في أرضها على أن يدفعوا جزية ضئيلة للملك ، ملك دنقلة .

د وكان لنا الشرف في أن نأكل مع هذا الأمير عدة مرات ولكن كانت مائدتنا مستقلة . وعندما سمع لنا بالزيارة الأولى ، كان يرتدي ثوباً من القطيفة الخضراء سابغاً إلى الأرض . وله حراس متعددون . فالذين يلزمونهم يحملون سيوفاً طويلة في أعمادها . أما الحرس الخارجي فيحملون أنصاف رماح . وقد زارنا هذا الأمير في خيمتنا ، ولما كنت قد عاجلته ببعض الأدوية فأثر فيه العلاج ، دعانا للنزول في ضيافته ، في البلاط ، ولكن لم يكده يعرف ارتباطنا بامبراطور الحبشة ، حتى تسامح فلم يجبرنا على البقاء . والملك ورائي ، وهو يؤدي الجزية للملك سنار .

د رحلنا من دنقلة في السادس من يناير سنة ١٦٩٩ ،

وبعد أربعة أيام دخلنا مملكة سنار . وقد استقبلنا ابراهيم على الحدود ، وهو أخو وزير الملك الأول . وكان استقباله كريماً ، وقام بالنفقات إلى أن وصلنا إلى بقعة طيبة على النيل حيث كان في صحبتنا . وقد بلغنا في الثالث عشر من يناير .

« ولما كان الأهالي الذين يقيمون عبر مدينة كورتى ، على نهر النيل ^(١) قد أعلنوا الثورة على ملك سنار ونهبوا القوافل التي تمر خلال بلادهم ، اضطرت القوافل الى أن تشق طريقها بعيداً عن ضفاف النهر ، وأن تتجه في مسيرها بين الجيوب والغرب ^(٢) لتخترق صحراء بيوضة الكبرى التي يستغرق اجتيازها ما لا يقل عن خمسة أيام مها يتخذوا من السرعة . وهذه الصحراء ليست موحشة كصحراء ليبيا حيث لا يجد المرء فيها الا الرمال . ففي صحراء بيوضة يلتقي المسافر من حين لآخر بالحشائش والشجر وبعد أن عبرنا الصحراء التقينا مرة أخرى بالنيل عند الضريبة ^(٣) وهي قرية هامة ، حيث استرحنا بها يومين وهذه بلاد وافرة الحصب . ومن المحتمل أن وفرة خصوبتها هي التي جعلت السكان يطلقون عليها اسم « بلاد الله » .

« وغادرنا البلاد في السادس والعشرين ، وانعطفنا جهة الغرب .

(١) يعني الشايقية .

(٢) ينبغي أن يكون الشرق بدلاً من الغرب .

(٣) في مديرية بربر ، باقليم شندي .

ولم نجد في طريقنا أثراً لقربة ما ، ولكن السكان الذين يقيمون في خيام ، يمدون المسافرين بما يحتاجون إليه . وبعد مضي بضعة أيام في رحلتنا ، التقينا بالنيل مرة أخرى قريباً من قرّي^(١) . وهناك يسكن أحد الحكام^(٢) ، ومهمته الرئيسية هي فحص ما إذا كان في القوافل التي ترد من مصر أي شخص مصاب بالجذري لأن هذا المرض ليس أقل خطورة ولا أقل تدميراً في تلك البلاد من الطاعون

« وقد أظهر هذا الحاكم نخوفا مجاملة خاصة تقديراً لعرش الحبشة كما تدل على ذلك عباراتهم عندما كانوا يذكرون ذلك الامبراطور وقد أعفانا من الحجز في الحجر الصحي الذي كانوا يتخذونه عادة في ذلك المكان الذي هو معبر للمسافرين في النيل ،

(١) في الكوداب ، في مواجهة قرى ، وتقع عند الشلال الخامس .

(٢) أحد شيوخ العبدلاب .

محتويات الكتاب

صفحة

٨ - ٣	مقدمة المترجم
١٠ - ٩	مقدمة المؤلف
٢٠ - ١١	الفصل الأول : سقوط الممالك النوبية وقيام الفونج
٢٧ - ٢١	الفصل الثاني : انحلال قوة الفونج في دنقله
٣٥ - ٢٨	الفصل الثالث : نهضة الشايقية
٤١ - ٣٦	الفصل الرابع : الممالك
٦٠ - ٤٢	الفصل الخامس : الغزو التركي

ملاحق :

٦٤ - ٦١	١ - القبائل الجعلية (جدول بأسمائها)
٧٣ - ٦٥	٢ - أبناء شايق وفروع الشايقية
٨٢ - ٧٤	٣ - دنقله في سنة ١٦٩٨ كما وصفها بونسيه

مراجع البحث

1. ✓ تاريخ السودان لنعوم شقير
2. ابن بطرطة - رحلته
3. مخطوطات عربية عن تاريخ السودان المختصر
4. Browne, W. G. — Travels in Africa, Egypt, and syria, 1792 — 8 (London 1799)
5. Bruce, J. — Travels to discover the Source of the Nile, 1768 - 73 (London, 1805) .
6. Budge, W. — The Egyptian Sudan .
7. Bruckhardt, J. L. — Travels in Nubia. (London 1919).
8. Cailliaud — Voyage a Meroe .
9. English, G.B. — Narrative of the Expedition to Dongola and Sennar under Ismael Pasha. (Boston 1823) .
10. Lane — Poole . — A History of Egypt in tha Middle Ages .
11. Lepsius — Nubische Grammtik .
12. Poncet — Journey to Eethiopia .
13. Quatremere — Memoires Historiques sur l' Egypte .
14. Russel — Nubia and Abyssinia .
15. Waddington and Hanbury, — Travels in Fthiopia .